آدم عبد الله الإلوري
مؤسس مركز التعليم العربي الإسلامي
أجيجي - نيجيريا

آثار العلم والفلسفة والتصوف

في مسيرة الدعوة الإسلامية

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

وصلى الله على خير خلق الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد ...

فلقد بدأت زوبعة التكفير تعصف في بلادنا هذه على المسلمين منذ إعلان الاستقلال ، وظل يهيجها من يريد أن يخالف ليعرف أو من يتوقد في نفسه حماسة خارقة لا تنفع الإسلام أكثر مما تضره في هذا المحيط وهذا المجال وهذا الميدان الذي تتصارع فيه الأديان ، أو يحارب فيه الإسلام خاصة والأديان عامة بالأسلحة المادية ، واجتازت هذه العاصفة أجواء المساجد والمجتمعات إلى أجواء المدارس والجامعات ، فأصبح الطالب يتلقى من الأساتذة مختلف الأقوال والآراء المتضاربة تحت ستار حرية البحث العلمي والنقد الرفيع .

أولاً : آراء في موقف الإسلام من المكتشفات العلمية التي تخالف نصوص القرآن .

ثانيًا : حول موقف الإسلام من الفلسفة التي هي أصل العلوم التجريبية ، ولكنها لم تعرف في عصر الرسالة ولا في عصر الصحابة وليس لها في القرآن والحديث نص صريح .

ثالثًا : حول موقف الإسلام من التصوف الذي لم يرد له نص كذلك في الكتاب والسنة ولم يعرف في الصدر الأول من الإسلام .

قرر هؤلاء الناس أن كل ما كان كذلك فهو بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار . وهل المبتدع الضال كافر بحكم الإسلام أو بحكم الفقيه المفتي أو القاضي الحاكم أو ليس بكافر؟

وهل يحارب المبتدع كما يحارب الكافر المشرك ؟

تلك هي المناقضات والمشابهات التي أوقعت الطالب في حيرة وارتباك ؛ وصعب عليه أن يهتدي إلى القول الفصل أو ما يقرب من الصواب .

ولما كنا ممن يشار إليه بالبنان في هذا الزمان وهذا المكان اتجهت أنظار الطلاب إلينا أن نقول شيئًا يفيد من يستفيد .

ولما كان من العادة أن لا تخلو السوق أبدًا من خارج منها وداخل إليها ، يتعاقبان مثل تعاقب الليل والنهار ، يخرج منها من نال مآربه على حين يدخل إليها من يريد قضاء مطالبه ، فالمعاهد والمجتمعات كالسوق لا تخلو أبدًا من طالب مبتدئ يتطلع إلى

المعارف التي كان قد استغنى عنها العالم المنتهي أو من عالم متبحر ينتفع منه الطالب الراغب المتطلع .

فللمبتدئ جمعت هذه المسائل من المحاضرات التي سبق أن ألقيتها على الطلبة الأفارقة في جامعاتنا ومدارسنا في مختلف المناسبات .

ورجائي أن تضاف إلى هدايا العيد الأربعيني من تأسيس مركز التعليم العربي الإسلامي لأنها قطرة من قطرات المركز ونفحة من نفحات المركز وأثر من آثار جهودنا وجهادنا في غضون المدة.

والله ولي التوفيق ...

آدم عبد الله الإلوري

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

نصيحة في الدعوة إلى الله

سهل على ألسنة بعض المتحمسين للإسلام أن يطلقوا كلمة كافر على من يخالف رأيهم أو مذهبهم أو طريقتهم ولو كان من أطلقوا عليه كلمة الكفر يصلي الخمس ويصوم رمضان ويحج بيت الله الحرام بعد صحة عقيدته أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

ومن قبيل ذلك من قالوا إن الفلاسفة كفار ، وأن كل من يثبت علمًا من العلوم الكونية خلافًا بظاهر نص الكتاب والسنة كافر .

وإن أصحاب الطرق الصوفية وأصحاب الأوراد كلهم كفار .

بل زادوا على ذلك أن كل من يتعاملون مع اليهود والنصارى كفار .

ناسين أو متناسين أن أكثر الدول الإسلامية اليوم كلهم يتعاملون مع أمريكا وفرنسا والإنجليز وكلهم أخلاط من اليهود والنصارى .

إلا أن العلماء قد اتفقوا على أن إدخال ألف كافر في الإسلام أخف وأقل خطيئة من إخراج مسلم واحد من حظيرة الإسلام فقال الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ :

« إن البعد عن التكفير أصل من أصول الإسلام» .

* * *

obeikandl.com

الفصل الأول

التصوف قبل الإسلام

إن التعمق في التدين يورث التنسك والتزهد والتبتل ، وهذا هو الذي يعبرون عنه بالتصوف .

ولابد لكل متأخر في شيء أن يقتبس ممن سبقه في ذلك شيئًا يقتدي به فيه أو يتأثر به .

لقد ظهر الإسلام بعد قرون من ظهور اليهودية والنصرانية ، ونزل القرآن بعد قرون من نزول التوراة والإنجيل ، ولما وصف القرآن التوراة والإنجيل أنهما منزلان من عند الله قبل تحريفهما ووصف أهلهما بأنهم أهل نبوة ورسالة وكتاب ، لم يجد المسلمون حرجًا في أنفسهم من الاقتباس منهم والاقتداء بهم في عبادات وعادات بحكم اقتداء المتأخر بالمتقدم إلا ما قطع به النص من الله والرسول للمسلمين .

انقطع قوم إلى الله في الجاهلية وقطنوا الكعبة وعرفوا بالصوفية فمن تشبه بهم سموهم صوفية . كما قال ابن الجوزي .

ومما تسرب إلى المسلمين من رواسب النصرانية (الرهبنة الدينية) التي ذمها الله في قوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ في حالة ومدحها في حالة أخرى .

وظهرت ثقافة العرب ومعارفهم بعد ظهور الإسلام وقد سبقهم بعدة قرون في الثقافات والمعارف أمم من الهند والفرس واليونان، فكان لابد من أن يقتبس العرب من قبلهم من الأمم معارفهم وثقافاتهم ، ومن ذلك كانت الفلسفة اليونانية .

ظهر في الإسلام والمسلمين فلاسفة مفكرون حاولوا التوفيق بين الفلسفة اليونانية ومبادئ الإسلام فغلوا وتطرفوا ، ثم جاء الذين كفَّروا هؤلاء وأخرجوهم من الإسلام فغلوا وتطرفوا ، وظهر المتنسكون المتصوفون وحاولوا التقريب بين الزهد الإسلامي والرهبنة النصرانية فغلوا وتطرفوا ، ثم جاء الذين أخرجوا هؤلاء من الإسلام فغلوا وتطرفوا .

فظهر العلماء الذين اعتقدوا أن مقصود الإسلام في طلب العلم هو العلم الديني لا غيره ، وأن كل علم جديد يخالف ظاهر النصوص القرآنية كذب وباطل فغلوا وتطرفوا ، وجاء الذين يقولون بأن جميع علوم الدنيا والآخرة في القرآن لا في غيره فغلوا وتطرفوا . وما من فريق من طوائف المسلمين إلا وقد غلا وتطرف فيما يميل إليه .

مع أن القرآن يقول : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ (النساء: ١٧١).

ويقول : ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) .

ومن ثَمَّ صار المسلمون يكفر بعضهم بعضًا بحق أو بغير حق في بعض أمور العقيدة ، وفي بعض أمور العبادة ، بل في بعض أمور العادة ، حتى اضطر بعضهم إلى وضع قواعد التكفير .

ومنهم الإمام الغزالي الذي ذكر قواعد التكفير في كتابه : « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » ، ومع ذلك فقد كفَّر الغزالي نفسه فلاسفة الإسلام كالكندي والفارابي وابن سينا ، ولم يطلب لهم تأويلاً فيما ذهبوا إليه ، على أن القاضي ابن رشد القرطبي المالكي وهو من الفلاسفة الفقهاء قد دافع عن آراء الفلاسفة وحقق أنهم مجتهدون مأجورون أو معذورون ، لأن كل مجتهد يخطئ أو يصيب .

والغزالي حين يكفِّر الفلاسفة كان يدافع عن الصوفية ويجعلهم خير الناس بعد الصحابة والتابعين ، وغير الغزالي يكفِّر الصوفية جملة ويخرجهم من حظيرة الإسلام كابن الجوزي ، والآخر يكفِّر بعضهم دون جميعهم كابن تيمية وابن حجر العسقلاني ، والآخرون يدافعون عن الصوفية جملة كالسيوطي وعبد القادر

الجيلاني والشعراني ، ولا يزال المسلمون حتى اليوم يكفر بعضهم بعضًا ويخرج هذا أخاه من حظيرة الإسلام في الأمور الظنية التي تحتمل التأويل وفي الفرعيات التي يمكن التسامح فيها، والنبي يقول : « إذا قال المسلم لأخيه يا كافر ، فقد باء بأحدهما الكفر » .

وعليه يقول الإمام محمد عبده في الإسلام والنصرانية : « إن عدم التكفير أصل من أصول الإسلام» وصح أن إدخال ألف كافر في الإسلام أهون من إخراج مسلم واحد منه ، وإنه إذا صدر من مسلم قول يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولم يحمل على الكفر ، كما يروى عن الإمام مالك رضي الله عنه .

على أن الفكر الإسلامي قد تأثر بالفلسفة إلى حد يصعب انتزاعه منها على الرغم من كراهة كاره لها . وتأثرت العبادة الإسلامية بالتصوف إلى حد يصعب امتيازه على الرغم من بغض بغيض له وفي العلم لم يسلم الفقهاء من التفسير الخاطئ لمعنى العلم ، ومن ذلك ظنهم بأن مقصود الإسلام بالعلم هو علم الدين فقط ، وزعمهم بأن بعض ما حققه العلم الحديث كفر لأنه تكذيب لله ورسوله على حسب ظاهر نصوص الكتاب والسنة ، كمن كفَّر من يقول بدوران الأرض حول الشمس ، وزعم أن الأرض ثابتة

والشمس جارية حولها ، وأن الأيام في القرآن هي نفس أيامنا الحاضرة ونحو ذلك .

لهذا وجب علينا والحالة هذه أن نجأر بصوتنا في هذه الظروف المحيطة بنا اليوم نحن المسلمين الموجودين تحت حكومة غير مسلمة ، وتحت عواصف الإلحاد التي تعصف من كل جانب ، وتحت حملات الأديان الأخرى التي تُشّنُّ على الإسلام من داخل كل بلد ومن خارجه ، وجب أن نتسامح فيما بين أنفسنا لئلا نحاول تجربة وقائع الجمل وصفين والنهروان ، على من ينظر في كتب ابن سينا والفارابي وعلى جميع الصوفية وعلى الذين اخترعوا واكتشفوا العلوم الحديثة .

إن الإسلام برىء من كل متحمس أعمى وكل غال مارق ، لأنه دين الاعتدال والوسطية ، كما دلت عليه الآيات .

* * *

الدعوة الإسلامية

الإسلام إيمان وقول وعلم وعمل وجهاد وعدالة وإصلاح .

أيها القارئ إذا أردت أن تفهم الإسلام صحيحًا كما أراد الله لك ورسوله عليه السلام ، فتدبر الآيات الآتية تجد معنى الإسلام واضحا في نفسك بقدر ما فتح الله عليك من الفهم والإدراك .

تجد أن الله قال عن الإسلام :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٣٠) .

فهو لذلك دين الفطرة .

يقرر القرآن بهذه الآية أن دين الإسلام دين الفطرة في جميع تعاليمه من العبادات والعادات والمعاملات ، وأن هذه الفطرة غريزة جبلية لخلق الله الذي أعظمه الإنسان ، وأنه هو الدين القيم الذي لا التواء فيه ولا التباس ولا اعوجاج . تجد أن الإسلام دين الأنبياء الذين سبقوا لقوله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ

﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ (الشورى:١٣) ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ (آل عمران:١٩) .

كما تجد أن القرآن يقرر .

وهو دين الله الذي بدأ به سيدنا نوح على المستوى المناسب مع قومه وعصره ، ثم جاء بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم جاء به النبي محمد مكملا ومتمما لجميع ما جاء به من تقدم من الأنبياء .

تجد أن محمدًا جاء لتكميل رسالات الأنبياء السابقين لقوله : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ (المائدة:٣) .

وإذا كان ما جاء به هؤلاء الأنبياء سلسلة متصلة الحلقات ، وكان قد ختمت هذه السلسلة بخاتمة سماوية من الله ، فلا مبرر لطلب دين آخر امتدادًا ، أو ابتداءً ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهًا﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾(آل عمران:١٩).

إلى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (آل عمران:٨٥) .

ويستطرد القرآن في شرح معنى الإسلام وحقيقته من نافذة

تنبيه النصارى واليهود بأن ما صوروه دينا ليس بالدين وحده ، ولكن الدين مجموع عبادات ومعاملات بقوله :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٧) .

تقرر هذه الآية أن الدين لا يقتصر على أذكار تتلى وصلوات تقام وأماكن تقدس وتزار ، فالصلاة اتجاه إلى الخالق بالشكر وطلب للمزيد من الخير والهداية منه واجتناب عن الشر ، والصوم ترويض للنفس على الصبر والاحتمال ومقاومة النفس ، والزكاة رد لفائض من الأموال إلى المستضعفين والمعوزين المحرومين ، والحج مؤتمر للتعارف والتعاون على البر وإصلاح المجتمع .

الإسلام إيمان وعمل : لذلك كان القرآن يكرر دائمًا قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (الرعد:٢٩) .

ويدخل في الإيمان الاعتقاد بوحدانية الله والاعتقاد بوجود ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خير وشره ، ويدخل في

العمل الصالح فعل الطاعات من فروض العبادات . والإحسان إلى الوالدين والأقربين والمساكين وجميع ما ينفع البشرية من علوم وصناعات وعدالة اجتماعية ، وكل ما ينطوي تحت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ (النحل:٩٠) ويدخل في العمل ترك المناهي من الشرك وقتل النفس وسائر أنواع الظلم وإيذاء الغير وكل ما ينطوي تحت معنى قوله تعالى : ﴿ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾ (النحل:٩٠) .

* * *

الأحاديث التي تشرح الآيات السابقة

« كل مولود يولد على فطرة الإسلام إلا أن أبويه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . رواه الطبراني .

« إن مثلي ومثل الأنبياء الذين من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا وأكمله وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون ويقولون : ما أجمل هذا البيت لولا هذه اللبنة فهلا وضعت هذه اللبنة . فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء » . متفق عليه وقوله عليه السلام : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » رواه مسلم .

وقوله : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» متفق عليه . وقوله : «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن» متفق عليه .

وقوله : «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» رواه البخاري .

وقوله : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» رواه البخاري ومسلم .

وقوله : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» رواه الترمذي.

وقوله : «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ، ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» رواه البخاري .

وقوله عن عبد الله بن عمرو ، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أي الإسلام خير ؟ قال : «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» رواه البخاري .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي توضح مقاصد الإسلام .

* * *

ثناء القرآن على العلم مطلقا

الإسلام أول دين جعل العلم أساسًا وعمادًا ، وكفى بذلك شاهدًا أن أول كلمة نزلت من القرآن ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ (العلق:١) وأول دين نوه بفضل القلم بقوله ﴿ عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلق:٤،٥) وأول دين رفع قدر العلماء بقوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ (آل عمران:١٨) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٨) .

وقوله : ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩) .

وقوله : ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ (المجادلة:١١) .

أما الأحاديث فمنها :

« من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء» .

« وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»
« إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »

رواه أبو داود والترمذي .

« إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير » .

رواه الترمذي .

« يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء».

وقوله : « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»

رواهما ابن ماجه .

قلت : العالم في الاصطلاح الإسلامي يطلق على وجه العموم، على كل من يتصف بعلم من العلوم سواء أكان دينيًّا أم دنيويًّا ، فالأديب والفقيه والمحدث والطبيب والمؤرخ والفيلسوف البحاث كلهم علماء ، لا فرق بين علوم الدنيا وعلوم الدين في حد ذاتها وفي قابليتها للإيمان والكفران .

وكل ما ورد في القرآن والحديث من التنويه بفضل العلم والعلماء إنما يقصد به علوم الدين والدنيا معًا ، وذلك أن لكل علم من العلوم الكونية والعقلية وظيفة في معرفة الله والإيمان به

كـما يمكن أن يكـون كـل علم مـن علـوم الـديـن أداة للإلحـاد أو الفساد .

فالعلم سلاح ذو حـدين فيـه بـأس شـديد ومنـافع للنـاس ، إذا استعمل للخير أفاد ، وإذا وجه للشر انقاد . وعليه قول الشاعر :

إذا مـــا أقـــتنى العلـــم ذو شـــره

تضـــاعف مـــا ذم مـــن مخـــبره

وصـــادف مـــن علمـــه قـــوه

يصـــول بـــها الشـــر في جـــوهره

وإذا نظرنا إلى ربط القرآن بين العلم وخشية الله تبين لنا من سياق الآية أن علوم الكون كالفلك والطبيعة والجغرافيا وغيرها مما يساعد على خشية الله تعالى ، كما يؤخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟** ﴾

(فاطر:٢٧،٢٨) .

وقد عقب الله ذكر خشية الله من علماء هذه العلوم التي ليست بعلوم الدين ، وذكر القرآن من آتاه الله آياته التي يحتمل أن تكون

علوم الدين فلم ينتفع بها في قوله : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٥) .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (فاطر:٣٢) .

وقوله : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ﴾ (الأعراف:١٦٩) .

وجاء في الحديث : « من طلب العلم ليباهي به السفهاء أو ليماري به العلماء أو ليصرف وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار » رواه الترمذي .

* * *

بين الإسلام والعلم

إن الإسلام يبني العلم على قواعد الدين ويجعل القرآن منبع العلوم ، والقرآن مثل الكون واسع فسيح فيه عجائب وغرائب وخصائص ، فالكرة الأرضية مثلا إحدى عجائب الكون وما هي إلا ذرة صغيرة من الأجرام الكبيرة التي تتناثر في الفضاء اللانهائي.

خلق الله الإنسان الأول وألهمه خصائص ما في الأرض من جمادات ونباتات وحيوانات ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة:٣١) وأمر الله الإنسان أن يشكر الخالق على نعمة الخلق والإيجاد والإلهام قبل أن يبدأ في الاستفادة لخصائص هذه المخلوقات .

ومن الناس من أعرضوا عن هذه الخيرات واستغلالها واكتفوا بشكر الله على الخلق والإيجاد والإلهام ، وهم المسلمون ، ومنهم من أعرضوا عن شكر ربهم على هذه النعم بل اهتموا بالاستفادة من هذه الخيرات وجعلوا يكشفون عنها شيئًا بعد شيء وكلما اكتشفوا نعمة رموها وراء ظهورهم وجدوا في كشف نعمة أخرى ، وهكذا دواليك وهم غير المسلمين .

* * *

القرآن مثل الكون

كل من يقرأ القرآن لا يرتاب في كونه كلام الله حقًّا ، وآية من آياته صدقًا ، وأن أساليبه المثالية الجذابة ومعانيه الواقعية ونغماته الموسيقية لا يصدر أبدًا إلا من خالق الكون ، ومثله كمثل الكون في الخصائص والعجائب والغرائب .

في القرآن ألفاظ جذابة ، ومعان سامية ، وأحكام عالية ، وعلوم عميقة ، وأوامر ونواهي راقية . بدأ بالدعوة إلى الاعتراف بالله وتوحيده بالعبادة ثم الاستفادة بما في معانيه وأحكامه وعلومه . فجاء المسلمون ووقفوا ردحا من الزمان يتدبرون معجزة ألفاظه ومعانيه ، فاكتشفوا النحو والصرف والبلاغة والفقه والتوحيد ، كل ذلك لفهم علوم الدين فقط من القرآن لا لفهم علوم الدنيا .

والحقيقة أن القرآن لم يكن كتابًا لتعليم المعارف والكشوفات ولكنه ملىء بالتلميحات والتلويحات والتوجيهات لعلوم الدنيا من الصناعات والمعارف والكشوفات . مما يدل على أن القرآن كلام رب يعلم الغيب والشهادة والماضي والحاضر والمستقبل . فجاء الكشف العلمي وفاقًا لما سبق القرآن إلى الإشارة إليه .

قال الكواكبي في طبائع الاستبداد[1] :

ومن ذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الكون هي الأثير . وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ (فصلت:١١) وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة.

والقرآن يقول : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ (يس:٣٣) إلى قوله ـ ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٣) وحققوا أن الأرض مفتقة في النظام الشمسي .

والقرآن يقول : ﴿ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ (الأنبياء:٣٠) .

والقرآن يقول ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ﴾ (الأنبياء:٤٤) ويقول : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ (القمر:١) وحققوا أن طبقات الأرض سبع .

والقرآ، يقول : ﴿ خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ (الملك:٣) ثم قال : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق:١٢) وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي أن تميد الأرض ، أي ترتج في دورتها .

والقرآن يقول : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (لقمان:١٠) وكشفوا أن سر التركيب الكيماوي ، بل والمعنى هو تخالف نسبة المقادير وضبطها .

---

(1) طبائع الاستبداد ص ٤٤-٤٦ .

والقرآن يقول : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد:٨) وكشفوا أن للجمادات حياة قائمة بماء التبلور .

والقرآن يقول : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾(الأنبياء:٣٠) وحققوا أن العالم العضوي ومنه الإنسان ترقى من الجماد .

والقرآن يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون:١٢) وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات .

والقرآن يقول : ﴿ خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾ (يس:٣٦) .

وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ (الحجر:٢٢).

وقوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ (طه:٥٣) .

وقوله : ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج:٥).

وقوله : ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ﴾ (الرعد:٣) وكشفوا طريقة إمساك الظل أي التصوير الشمسي .

والقرآن يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (الفرقان:٤٥) وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء .

والقرآن يقول : بعد ذكر الدواب والجواري بالريح : ﴿ وَخَلَقْنَا

﴿ لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ (يس:٤٢) وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدري وغيره من الأمراض .

والقرآن يقول : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ ـ أي متتابعة مجتمعة ـ ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (الفيل:٤) أي من طين المستنقعات اليابس . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية . اهـ .

قلت : ليس من واجب القرآن أن يفعل أكثر من التنويه بالعلم والتوجيه إليه والحض على الصناعة والاختراع لا أن يعلمها .

قال عباس محمود العقاد :

« ويكفي لصلاح العقيدة أن تنهض بالعقل والقريحة ولا تصدهما عن سبيل العلم والصناعة ولا تحول بين معتقديها وبين التقدم في الحضارة وأطوار الاجتماع .

وما دامت العقيدة تمنع الضرر الذي يبتلى به من المعتقدين الصد عن حرية الفكر وحرية الضمير ، فهي صالحة للعلم والحضارة والتقدم فليس للعلماء ولا للفلاسفة أن يطلبوا من الدين غير هذا . ولو لم تكن العقيدة ضرورية كونية لا تخلقها مشيئة أحد من الآحاد ولا قدرة رسول من الرسل ولا نبي من الأنبياء ، ولو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا ولما أفلح الرسل والأنبياء في نشر دعوتهم » اهـ[1] .

* * *

(1) الفلسفة القرآنية ص ٦ .

علماء الدين وعلماء الدنيا

اتجهت جهود المسلمين إلى مباحث الدين في القرآن ولم يتخلفوا في هذا الميدان ، وقليل منهم من بحثوا في علوم الدنيا من الطبيعة والفلك والرياضة والصناعة ، وكلما تعارضت آراء هؤلاء في بحوثهم بنصوص الدين ، تلقوا من علماء الدين لعنات بتهمة الخروج على الدين ، واتصف علماء الدنيا بصفة كفار وزنادقة من علماء الدين ، فجعل علماء الدنيا يحاولون التوفيق بين آرائهم العلمية والنصوص الدينية[1] .

ومن ضحايا هذه المجادلة أبو النصر الفارابي الملقب بالمعلم الثاني نسبة إلى أرسطو الملقب بالمعلم الأول ، والفارابي رجل عبقري في الحساب والهندسة والفلك ، وكان يجيد لغات عصره ، وينقل هذه العلوم العقلية من مختلف اللغات إلى اللغة العربية ، ومع ذلك رماه علماء عصره بالزندقة ، وقد صار بعد ذلك يعد فخراً للإسلام لكونه أستاذًا لأهل أوربا في هذه العلوم .

---

(1) الدكتور هيكل في بحوثه عن المعرفة والعقل والدين ص٩ وما بعدها.

ثم ابن سينا الملقب بالمعلم الثالث ، درس الفلسفة وبرع في الطب حتى كانت أوربا كلها عالة على كتابه القانون طوال ثلاثة قرون ، ومع ذلك كفره علماء الفقه والشريعة لبعض آرائه وأخرجوه من الجماعة الإسلامية .

فما من عالم عربي إسلامي برع في علوم الدنيا إلا حاول نصرة الإسلام والتوفيق بين العلم والدين ، ومع ذلك لم يكن له جزاء عند علماء الدين غير إطلاق الكفر والزندقة عليه .

وما من عالم دنيوي في الإسلام إلا وقد حاول الخوض في مسائل الدين من عقيدة وفقه وتفسير لكلام الله بما يدل على أنه سليم الإيمان والإسلام ، وإن جانبه الصواب في رأيه ، وكل مجتهد يخطئ ويصيب ومع ذلك لا يحمد ولا يعذر له ولا يشكر على فعله .

فصار الناس يبتعدون تدريجيًّا عن المباحث العلمية خوفًا من الوقوع في المزالق الدينية ، فصار العلماء يحملون الناس جميعًا على علوم الدين ويحرمون ما عداه وحملوا جميع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مدح العلم والحث على طلبه ، على أن العلم المقصود في الإسلام هو علم الدين فقط . اعتمدوا في ذلك حديثًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي يقول : « العلم ثلاثة فما سوى ذلك فهو فضل ، آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » .

وينسب إلى الإمام الشافعي :

كل العلـــوم ســـوى القـــرآن مشـــغلة
إلا الحـــديث وإلا الفقـــه في الـــدين
العلم مـــا كـــان فيـــه قـــال حـــدثنا
وما ســـوى ذاك وســـواس الشـــياطين

قال شاعرهم :

العلـــم قـــال الله قـــال رســـوله
قال الصـــحابة هـــم أولـــوا العرفـــان

والحديث السابق ، إنما يجب أن يحمل على العلم الديني الذي ليس لأحد أن يتكلم فيه برأيه ، بل بالنص . وكذلك قول ابن تيمية في الجزء الأول من مجموعة رسائله الكبرى : « إن العلـم مـا كـان موروثًا عن نبي ، وكل ما سواه فهو علم لا ينفع أو ليس بعلم وإن سمى به » رحم الله الإمام .

وآية القرآن وسنن الرسول وآثار الصحابة لم تبحث في العلـوم والصـناعات والمعـارف علـى الإطـلاق ولم يكـن الـنبي معلمـا للبشرية في شؤون دنياهم بل قال : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم إنمـا أنا بشر أخطئ وأصيب وما حدثتكم عن الله فهو حـق ، ومـا قلـت من قبل نفسي فإنما أنا بشر أخطئ وأصيب » .

هذا الحديث دليل على اعتراف النبي بأن أهل الدنيا أعلـم بهـا ، وأنه لم يأت لتعليمهم فيها .

* * *

العلم الإسلامي
يخدم الدعوة الإسلامية في أوربا

طلع بصيص من نور العلم الإسلامي على سماء أوربا عن طريق الأندلس ، فاتجهت علماء أوربا إلى مباحث علوم الدنيا والصناعات والمعارف على ضوء ما اكتشفه علماء العرب في سائر العلوم الكونية .

لقد كان جابر بن حيان وأبو بكر الرازي وابن سينا أول من اكتشفوا الزئبق والكبريت والزرنيخ والكحول والصودة وغير ذلك في علم الكيمياء . وكانت مؤلفات الحسن بن الهيثم المرجع الوحيد لأهل أوربا في علم الضوء حتى القرن السادس عشر الميلادي .

وكانت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي ، الأصل الأصيل في علم الجبر والمقابلة ، ولا يزال هذا العلم يحمل اسمه العربي عند أهل أوربا حتى اليوم .

وكان البيروني وثابت بن قرة الفوغاني وابن الهيثم وابن سينا علماء أهل أوربا في علم الهندسة . وكان القزويني أول من تكلم في الطبيعة الجوية قبل أهل أوربا[1] .

* * *

(1) مكانة العلم والعلماء في الإسلام ص ١٢٣ .

علماء أوربا والكنيسة

أخذ أهل أوربا في المباحث الكونية وتخلو عن دينهم النصراني ، وعن قيود علماء الدين ، فاكتشفوا أشياء عجيبة من الكون ، فثارت ثائرة الكنيسة ضد أولئك العلماء الباحثين الذين لم يحاولوا التوفيق بين نصوص الدين ونظريات علمية كما فعل المسلمون وحمى وطيس الحرب بين الطرفين حتى كان النصر حليف العلم فتغلب على الكنيسة ورجال دينها ، ومن هنا ضعف سلطان الدين في نفوس أهل أوربا .

* * *

تأويل نصوص الدين لمطابقة العلم

يقول ابن سينا : « إن الشرع خطاب للجمهور كافة ، لذلك يجب أن يكون على ما يفهمون ولو كلف الله رسولاً أن يلقي حقائق الأمور إلى الجمهور لتسارعوا إلى العناد ، واتفقوا على أن ما يدعون إليه باطل أصلاً . لهذا اتفق الفقهاء على أن النص إذا خالف صريح المعقول وجب تأويل النص »[1].

(1) راجع النزاع بين العلم والدين للدكتور التوفيق الطويل .

وكان الإمام الغزالي على مثل هذا الرأي ، يقول الغزالي : صدور الأحرار قبور الأسرار ، ويردد القول القائل : خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتريدون أن يكذبوا الله ورسوله ، وبالبيت القائل:

فمن منح الجهال علما أضاعه

ومن منع المستوجبين فقد ظلم

ويقول ابن رشد : فالكلام في الحقائق العلمية مع الجمهور بمنزلة من يسقى السموم أبدان كثير من الحيوانات بلا استثناء ، فالسموم غذاء لبعض الحيوان ، ويكون زعافا للبعض ، فمن سقى السم من هو في حقه زعاف قاتل حتى مات فقد استحق القود ، ومن منع السم من هو في حقه غذاء حتى مات فعليه القود ، ومن منع النظر من يستحقه فهو بمنزلة من جعل الأغذية كلها سموما لجميع الناس .

إن أفهام الجمهور لا تنتهي إلى حقائق الدقائق ، وإذا خيض معهم فيها بطل معنى الشرع عندهم ، لذلك كان الخوض في ذلك حراما إذا كان الكافي في سعادتهم أن يفهموا ما أطلقه الشارع على ما تطيق أفهامهم[1] .

لذلك اقتصر الشارع في تعريف الخالق البارئ بما يفهم الإنسان بتمثيله عز وجل بالجوارح الإنسانية مثل قوله : ﴿ **مِّمَّا**

(1) راجع : فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال .

﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ و ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ بل جاء التوحيد كله تشبيها في الظاهر وتنزيها في الحقيقة .

* * *

قواعد التأويل عند ابن رشد

يقول ابن رشد :

إن ههنا ظاهرا من الشرع لا يجوز تأويله ، فإن كان تأويله في المبادئ فهو كفر ، وإن كان فيما بعد المبادئ فهو بدعة :

وههنا أيضًا ظاهر يجب على أهل البرهان تأويله وحملهم إياه على ظاهره كفر ، وتأويل غير أهل البرهان وإخراجه عن ظاهره كفر في حقهم أو بدعة ، ومن هذا الصنف آية الاستواء وحديث النزول . ولذلك قال عليه السلام في السوداء إذ أخبرته أن الله في السماء «أعتقها فإنها مؤمنة» إذ كانت ليست من أهل البرهان .

والسبب في ذلك أن الصنف من الناس الذين لا يقع لهم التصديق إلا من قبل التخيل ، أعني أنهم لا يصدقون بالشيء إلا من جهة ما يتخيلونه ، يعسر وقوع التصديق لهم بموجود ليس منسوبًا إلى شيء متخيل ، ويدخل أيضًا على من لا يفهم من هذه النسبة إلا المكان ، وهم الذين شدوا على رتبة الصنف الأول قليلاً في النظر باعتقاد الجسمية ، ولذلك كان الجواب لهؤلاء في أمثال

هذه أنها من المتشابهة وأن الوقف في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وأن البرهان مع أنهم مجمعون في هذا الصنف على أنه من المؤول ، فقد يختلفون في تأويله وذلك بحسب مرتبة كل واحدة من معرفة البرهان[1] .

وعلى هذا الأساس أول المفسرون بعض آيات القرآن في دحو الأرض وبساطها في عين الرائي مع أنها كروية الشكل ، وكذلك غروب الشمس في عين حمئة من الأرض مع أنها أكبر من الأرض بمليون مرة ، وهكذا دواليك .

* * *

شروط التأويل عند العقاد

حذر العقاد علماء الإسلام من تأويل النصوص الدينية لمطابقة النظريات العلمية قبل ثبوتها ، كما حذر الفقهاء أيضًا الذين يكفرون من يحاول التوفيق بين النصوص الدينية وبين الحقائق العلمية الثابتة بالتأويل ، كذلك حذرهم من التصدي لإنكار المباحث العلمية بعد ثبوتها فقال :

« لقد علم رجال الدين في الغرب ماذا كان من أثر تحريمهم للقول بدوران الأرض حول الشمس وإيجابهم تعليم النشء أن

(1) فصل المقال ص ٢٤ ، ٢٥ .

الشمس تدور حول الأرض كان وجود الخالق جل وعلا مرتبطًا بدوران هذه ، وتلك ثم قال :

لقد أخطأ بعض علماء الإسلام الذين فسروا السموات السبع بالسيارات في المجموعة الشمسية ، ولما تبين أن السيارات عشر تحيروا ، وأخطأ الذين فسروا ستة أيام لخلق الدنيا بأيامها هذه أولها الأحد وآخرها السبت ، كما أخطأ الذين أنكروا كروية الأرض ودورانها حول الشمس في الفضاء وكفروا الفلكيين الذين حققوا ذلك وأثبتوه ، كما أخطأ الذين أنكروا التطور استنادًا إلى أن الله خلق الإنسان من الطين فإن خلق الإنسان من الطين لا ينفي التحول إلى غير الطين ، ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب»[1] .

* * *

العلم في خدمة الدين

انطلاقًا من قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا** ﴾ (فاطر:٢٨) قررنا حسب الواقع والحقيقة أن العلم الصحيح يهدي بدون ريب إلى الإيمان بالله والأنبياء والكتب السماوية

(1) الإنسان في القرآن ص ١٧٥ .

وذلك لا ينافي أن يرى شرذمة قليلة من أدعياء العلم من يزعم أن العلم والدين نقيضان ، أو من يستند على بعض الأدلة يحسبها علمية وينكر بها وجود الله ، ولكن الجم الغفير من العلماء في مختلف الفنون حققوا بأن العلم الحديث يثبت وجود الله والإيمان به وبوحدانية بما لا يحتمل الشك أو الجدل ، مثال ذلك : أن أحد العلماء المسمى جوليان هكسلي ألف كتابًا سماه : « الإنسان يقوم وحده» زعم فيه أن العلم ينكر وجود الله ، فانبرى له عالم آخر وهو كريس موريسون من أمريكا حقق أن الإنسان لا يقوم وحده وأثبت بمختلف العلوم أن الله خالق كل شيء ، وأن العلم يدعو إلى الإيمان .

يقول ناشر الكتاب في ديباجته عند وصف الكتاب ما يأتي :

« وقد استعان المؤلف بأمثلة من علم الفلك والجيولوجيا وعلم الحشرات وعلم النبات وعلم الأحياء وعلم الطبيعة وعلم النفس والفلسفة وقد جمع هذه المادة بعناية بالغة وعرضها بدقة وبراعة ، واشتق من هذه العلوم المختلفة المتشابكة حقائق عجيبة مرتبطًا بعضها ببعض في انسجام كامل على نحو يؤدي بالضرورة إلى إيمان كل إنسان مفكر سليم الفكر بوجود الله .

إن بعض المؤمنين يؤمنون على أساس الشعور ، والبعض الآخر على أساس تعاليم . يحفظونها دون تفكير ، ولا يصلح هذا

الأساس ولا ذاك وإنما يصلح الإيمان القائم على العقل ليقي الإنسان في هذا العصر الذري المدهش» اهـ[1].

والأستاذ حسن الباقوري يعقب على هذا بقوله : «والتعرف إلى الله عن طريق هذه الفطرة أمر سهل ميسور لا يحتاج إلى علم غزير أو نظر فلسفي ، وإنما تكفي فيه النظرة الخالصة في صفحات هذا الموجود ، نظرة في الأرض أو السماء في الليل أو في النهار في عالم الحياة أو الموت في النبتة الصغيرة أو الشجرة الباسقة ، نظرة واحدة إلى أية صورة من صور هذا العالم وإلى أي لون من ألوانه ، ترى إلى العقل شواهد ناطقة بقدرة الخالق العظيم، وتحمل إلى القلب فيضًا من الإجلال والإكبار لهذا الصانع المبدع : ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ (الملك:٣،٤) .

فماذا يبلغ البصر من هذا المحيط العظيم الذي لا تضمه قيود ولا حدود ؟ أولى له ثم أولى أن يقف عند حده ، وأن يرضى من النظرة الأولى بما يتكشف له من عجائب وأسرار .

---

(1) العلم يدعو للإيمان ص ١٣ .

تلك هي طريقة الإسلام في معرض الهداية إلى الله والدعوة إليه أنه يوقظ العقل أولا ، يوقظه في رفق ويسر حين يلفته إلى مظاهر الكون المحيطة به ، والواقعة تحت سمعه وبصره ، يريد أن يلتفت إليها لفتة حالمة شاعرة لا أن يغوص في أعماقها يطلب عللها وأسبابها ويلتمس عناصرها وأجزاءها » اهـ[1] .

قلت : ومع هذا وذاك فإذا كان الإسلام يجعل الفكرة السلبية أقرب إلى معرفة الله ، فإنه يجعل العقل والعلم أيضًا إلى ذلك دليلاً .

لذلك أمر بالنظر والتفكر والتأمل في ملكوت الأرض والسموات. وإذا كان العلماء الغربيون يقررون بأن العلم يدعو إلى الإيمان ، أليس ذلك مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ . نكتفي بهذا في العلم ، وننتقل إلى باب الفلسفة .

* * *

(1) العلم يدعو للإيمان ص ٢٧ .

obeikandl.com

الفصل الثاني

أثر الفلسفة
في مسيرة الدعوة
الفلسفة بين البحث والحكمة

الفلسفة أم العلم والعلم ثلاثة أنواع :

علم يدرك بالحواس الخمس هي الطبيعي البدهي أو الضروري .

وعلم يدرك بالوحي السماوي وهو الديني .

وعلم يدرك بالعقل والبحث وهو النظري الفلسفي .

وهل الفلسفة كانت تسير مع موكب الدعوة في يوم من الأيام أم وقفت الفلسفة حجر عثرة في سبيل الدعوة .

الجواب فيما يأتي :

كل إنسان من صغير أو كبير يسأل عما لا يفهم وهذا هو عين البحث والفلسفة ، ولكن إذا ذكرت الفلسفة تبادر إلى الذهن أسلوب التفكير اليوناني أو التراث الإغريقي الذي نقله العرب إلى لغتهم وحملوه إلى أهل أوربا في القرون الوسطى .

وكان الفقهاء والمحدثون من علماء الإسلام أكثر خصومًا لهذا الاتجاه ، إذ كانوا يكفرون الفلاسفة ومن يميل إلى مذهبهم .

مع أن معنى الفلسفة في حد ذاتها لا يتعدى حدود النظر والاستدلال العقلي أو البحث عن حقائق الأشياء وفوائدها وعن الحكمة المنطوية تحتها .

ولله در أبي الحسن الندوي القائل : « إن للأسماء جناية على المسميات » . اهـ .

ولو عرف الفقهاء والمحدثون أن الفلسفة هي محبة الحكمة ، والقرآن دائمًا يذكرها مقرونا بالنبوة وينوه بها في قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة:٢٦٩) .

والحكمة مهما يكن معناها ومهما تكن تصدر من غير مسلم ، أفلا يكفينا الحديث القائل : « الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها لأنه أحق بها » رواه الثعلبي وأخرجه المناوي .

ومهما يكن الفرق بين الحكمة القرآنية التي يجب أن تكون بالطرف الأعلى لأنها ربانية ، وبين الحكمة اليونانية التي يجب أن تكون بالدون لأنها بشرية ، فالحكمة هي الحكمة . ولو تسامح الفقهاء مع الفلسفة من هذه الناحية لما حاربوها ، كما لو عرف

الفقهاء والمحدثون أن الفلسفة هي استعمال العقل بالنظر والاستدلال ، وكان القرآن يدعو دائمًا إلى الفكر والتأمل في ملكوت السموات والأرض ، وإنما ينهى عن التفكر في ذات الله فقط حيث قال النبي : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا» رواه الطبراني .

لما حاربوا المتفكرين والمتأملين في معرفة ما يجهلون .

وكذلك لو عرف الفقهاء أنهم استعملوا العقل بالنظر والاستدلال في المسائل الفرعية الفقهية حتى اخترعوا فروع الفقه لما حاربوا الفلسفة والمتفلسفين .

أجل دعا الإسلام إلى استعمال العقل والفكر في المرئيات من عجائب صنع الله في الأرض والسموات وإلى استعمال العقل والفكر في فهم الآيات والأحكام ، أما الغيبيات التي لا طريق للعقل إليها وإنما طريقها الوحي والنبوة فنهى الإسلام عن أن يستعمل فيها العقل والفكر .

ولو تسامح الفقهاء والمحدثون مع الفلسفة من هذه النواحي لما أبغضوها مطلقا من أجل خطأ الفلاسفة في الغيبيات .

ومع هذا وذاك فإن للفلسفة رباطًا قويًّا وتأثيرًا بليغًا على مسيرة الدعوة الإسلامية ، ففي السطور القليلة الآتية ما يوضح ذلك .

ولنا أن نتقدم أولاً على تقسيم الفلسفة إلى قسمين :

أحدهما : إسلامية خالصة وهي السابقة .

وثانيهما : يونانية معربة وهي اللاحقة .

أما الأخيرة فلم يعرف العرب منها غير آراء أفلاطون ، وأرسطو ، وهي التي ترجمها الكندي المعروف بفيلسوف العرب المتوفى (٢٥٦هـ) ثم الفارابي الملقب المعلم الثاني مقابل أرسطو المعلم الأول وهو المتوفى (٣٣٥هـ) ثم ابن سينا الملقب بالمعلم الثالث المتوفى (٤٢٨هـ) .

وهؤلاء هم الذين عرفوا بفلاسفة العرب . وإذا كفر الفقهاء والمحدثون الفلاسفة إنما يقصدون هؤلاء بالدرجة الأولى ثم يلحق بهم من ذهب مذهبم . وسوف نعود إلى بيان أسباب تكفيرهم .

يقول الشهرستاني أن الفلاسفة والأنبياء كلاهما يرمي إلى تحقيق السعادة للبشرية لأن غاية الحكيم أن يتجلى لعقله كل الكون ويتشبه بالإله الحق بغاية الإمكان .

وغاية النبي أن يتجلى له نظام الكون وينتظم مصالح العباد وأن الفارابي في كتابه « تحقيق السعادة » يشير إلى تقارب موضوعات الفلسفة وموضوعات الدين إنها تكاد تكون واحدة[1].

* * *

(1) انظر الجزء الثاني من تعليق المحامي فهمي .

الفلسفة الإسلامية

أما الفلسفة الإسلامية التي تفتقت براعمها في علم الكلام الذي قاد موكبه الفرقة المعتزلة بقيادة واصل بن عطاء المتوفى (١٣١هـ) وعمرو بن عبيد المتوفى (١٤٥هـ) .

فقد سبقت الفلسفة اليونانية بزمن كما يظهر من تاريخ وفياتهم، لأن الإمامين المذكورين كانا تلميذين للتابعي الجليل الحسن البصري ثم اختلفا معه في الرأي واعتزلا مجلسه وأسسا مدرسة الاعتزال وعلم الكلام .

إن المتكلمين من المعتزلة قد أسسوا علم الكلام من ينبوع التفكير الإسلامي الخالص قبل نقل فلسفة اليونان إلى العربية ، لكن لا ينكر أحد أنهم فيما بعد قد اتصلوا بالفلسفة اليونانية بعد نقلها إلى العربية وتعلموها وتأثروا بها وخلطوها بعلم الكلام فالتقى البحران ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج .

كانت المعتزلة عند الفقهاء والمحدثين تسمى الفرقة المبتدعة لأنها كان تبحث عن القدر وقد نهى النبي عن الخوض فيه وقال: « إذا ذكر القدر فأمسكوا» .

وكانت تبحث عن ذات الله وصفاته وتتعرض للآيات التي توهم التشبيه بالتأويل لها عن معناها الأصلي . وكان السلف

يكرهون الخوض في البحث عن صفات الله ، ولا يؤولون نصوص التشبيه وإنما كانوا يفرضون ويتوقفون ، ولما سئل الإمام مالك عن قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) قال : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

كره السلف البحث عما وقف فيه الصحابة والتابعون وقالوا : يجب أن يسعنا ما وسعهم أن نقف حيث وقفوا ولسان حالهم يقول :

ولا توغلن متى ما سبحت

فإن السلامة في الساحل

ولكن الناس مختلفون في المواهب والفهم ومتفاوتون في الفكر والنظر ، من الناس من لا يكتفي بسطحيات الأمور بل يكشف عما وراء الأشياء من الحقائق والحكم وهذا عين الفلسفة.

وجاء المتأخرون يقولون كما قال اللقاني :

وكل نص أوهم التشبيها

أوله أو فوض ورم تنزيها

* * *

الإسلام والحث على البحث والنظر

إن العلماء المسلمين وجدوا في القرآن عدة آيات تدعو إلى النظر في خلق الله وتثني على المتفكرين في عجائب صنع السموات والأرض .

منها قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية:١٧-٢٠) .

ومنها قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ ﴾ (آل عمران:١٩١) .

كما أن العلماء المسلمين وجدوا أن القرآن يثبت الصلة بين النبوة والحكمة ، وما من نبي ولا رسول إلا وقد وصفه الله بالحكمة :

قال في شأن سيدنا داود : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (البقرة:٢٥١) .

وقال في شأن سيدنا عيسى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ (آل عمران:٤٨) .

وقال في شأن سيدنا محمد : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ (الجمعة:٢).

ومهما يكن الأمر من الاختلاف في معنى الحكمة النبوية والحكمة اليونانية ، فلا فرق إلا أن الحكمة النبوية مصدرها الوحي ، والحكمة اليونانية مصدرها العقل المحض ، وأن الحكمة النبوية تخص بالغيبيات والإلهيات ، أما اليونانية فلا تجدي نفعا في الغيبيات إلا في الطبيعيات .

ومهما يكن الأمر فالفلسفة إذا كانت محبة الحكمة قد وردت في شأنها عدة آيات ، فكيف نشأ الخلاف بين الإسلام والفلسفة؟

هناك جوابان :

الأول : أنه ليس بين الإسلام والفلسفة خلاف ، ولكن الخلاف بين علماء الإسلام وعلماء الفلسفة .

الثاني : أن الفقهاء والمحدثين أبغضوا الفلسفة لأنهم عرفوا منها أولا ما كان يبحث عما وراء المادة وعن ذات الله وعن أصل الوجود ونهايته ، فذلك ما لا مجال فيه للعقل ولا يتأتى لغير الأنبياء الذين يتلقون الوحي من الله .

والإسلام لما أمر بالتفكير في خلق الله نهى عن التفكير في

ذات الله كما هو في الحديث « تفكروا في مخلوقاته ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا » رواه الطبراني .

تفكر الفلاسفة في ذات الله فأخطأوا لأن ذلك فوق العقل البشري فأبغضهم الفقهاء والمحدثون وسموهم زنادقة وكفارا ، وحرموا النظر في الفلسفة وسائر فروعها .

أخطأ الفقهاء والمحدثون في التحريم مطلقا حيث قد فاتهم أن يدركوا أن الفلسفة في حد ذاتها هي البحث مطلقا فلا يحرم منها إلا ما يتعلق بالإلهيات والغيبيات . وأخطأ الفقهاء في تحريم الفلسفة وتكفير الفلاسفة جملة ، فكانوا كمن يحرم الخل بتحريم الخمر ، أو يمنع النوم خوفا من الموت .

قال ابن رشد في فصل المقال : « إذا غوى بالحكمة غاو بسبب من الأسباب ، فليس ذلك دليلاً على منع النظر في الحكمة ، فإن من منع النظر في كتب الحكمة من أجل الظن أن قوما ضلوا من ذلك فكمثل من منع العطشان شرب الماء حتى مات ، لأن قوما شرقوا به فماتوا ، فإن الموت عن الماء بالشرق أمر عارض والموت عن العطش ذاتي ضروري ، مثاله قول النبي ﷺ لمن شكا إليه إسهال بطن أخيه وأمره أن يسقيه العسل ثم جاء وقال : سقيته ولم ينفعه ، قال له النبي ﷺ : « صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا » فذهب وسقاه فنفعه . اهـ . انظر فصل المقال .

* * *

هل الفلسفة القديمة كلها صحيحة

لا نقول بأن الفلسفة القديمة كلها صحيحة وخالصة لا خطأ فيها ولكننا نقول بأن منها تقدمت المعارف الإنسانية في الحضارة والمدنية ، ومنها تولدت العلوم التجريبية الحديثة التي نجحت على أيدي غاليليو ، وبيكون ، وأديسون ، وأمثالهم من الغربيين الذين أخذوا الفلسفة اليونانية من العرب في الأندلس كما أخذوها من النصارى الذين طردهم محمد الفاتح من القسطنطينية إلى إيطاليا فهذبوها ونقحوها ، ولولا تحريم الفقهاء والمحدثين للفلسفة وفروعها وتكفير الفلاسفة ورميهم بالزندقة مما جعل المسلمين يهربون منها خوفًا من ألسنة الفقهاء المكفرين للفلاسفة، لكان المسلمون أول من تجري على أيديهم العلوم التجريبية الحديثة على نطاق أوسع .

ومن ناحية أخرى ازداد الفقهاء والمحدثون بغضًا للمعتزلة لأنهم نظروا في الفلسفة التي اعتبروها كفرًا وزندقة ، وخلطوها بعلم الكلام الذي اعتبروه بدعة في الإسلام .

ويروى عن الإمام الشافعي أنه قال : « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاليس » .

والشافعي إنما يذم الناس أنهم صاروا يفكرون بالتفكير

اليوناني المعتمد على العقل المحض لا على الدين والوحي ، فصاروا يقدمون العقل على الوحي في أمر الدين الذي لا مجال فيه للعقل .

ظل الفقهاء أعداء للفلسفة وعلم الكلام ، وخصوما للفلاسفة المسلمين الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة والإسلام بتأويل نصوص القرآن فكفرهم الفقهاء فبدت بينهم العداوة والبغضاء .

لما جاء الغزالي ودرس فروع الفلسفة كلها وفحصها فحصًا جيدًا فقسمها إلى ستة أقسام وهي : الرياضيات ، والطبيعيات ، والسياسات والأخلاقيات ، والمنطقيات ، والإلهيات ، أباح خمسة منها وندب إلى دراستها ، وأوضح أنها لا تتعرض للدين نفيا أو إثباتًا ، وقرر أن أغلاط الفلاسفة كلها في الإلهيات وحصر أغاليطهم في عشرين مسألة ، كفرهم في ثلاث منها وبدعهم في الباقية .

وأما المسائل الثلاث التي كفرهم من أجلها فهي :

الأولى : في قولهم إن العالم قديم مع الله بمعنى أنه يوجد مع وجود الله شيء غير الله منذ الأزل ، وهذا الشيء الذي تطور حتى نشأت منه الأشياء الأخرى ، وهذا الشيء من ذات الله أو من غير ذاته تعالى .

الثانية : في قولهم إن الله يعلم كليات الأمور ولا يعلم جزئياتها، لأن الله أعظم من الاكتراث بالجزئيات بل يكتفي بالكليات .

الثالثة : في قولهم إن الله لا يحشر الأجساد بل يحشر الأرواح في المعاد ، وأن الثواب والعقاب في الآخرة روحاني ليس بجسماني ، لأن الجسم من طبيعة المادة الأرضية والروح من الملأ الأعلى . اهـ .

بهذه الأقوال كفر الغزالي الفلاسفة . أما المسائل الأخرى فلم يكفرهم من أجلها بل بدعهم فيها .

ثم جاء بعد الغزالي من الفقهاء من يرى التوفيق بين الإسلام وبين مذهب الفلاسفة في هذه المسائل ذلك هو القاضي ابن رشد القرطبي .

قال في المسألة الأولى في قدم العالم أجاب : بأنه ليس في الكتاب والسنة نص يدل على أن الله تعالى كان موجوداً مع العدم المحض قبل خلق السموات والأرض ، بل جاء في القرآن نصوص يدل ظاهرها على وجود أشياء قديمة مع الله لم يذكر الله لنا منشأها .

منها قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ** ﴾ (هود:٧) .

وقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا** ﴾ (فصلت:١١) .

فدلت هذه النصوص على قدم العرش والماء والدخان والزمان المقدر منه الأيام الستة .

فإذا قال الفلاسفة بقدم العالم فإنهم إما مجتهدون مصيبون مأجورون أو مجتهدون مخطئون معذورون[1] .

قلت : وإذا اعتقدنا قدم هذه الأشياء لزم تعدد القدماء ، والله تعالى وحده هو القديم لا قديم غيره ، كما في مذهب الأشاعرة.

ثم جاء ابن تيمية وسائر الحنابلة السلفيين يقولون بعدم إطلاق صفة القدم والقديم على الله تعالى ، لأنه لم يرد في الكتاب والسنة نص بذلك وإنما ورد : هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

ولما سئل ابن تيمية عن استواء الرحمن على العرش ألا يدل على أزلية العرش ؟

أجاب : إن الله لا يزال يحدث عرشا ويعدم عرشا حتى يكون استواؤه عليه أزليًا ، لهذا فالتسرع بإطلاق الكفر على هؤلاء غير صحيح[2] .

أما المسألة الثانية : في أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات ، أجاب في ذلك ابن رشد : بأنهم أرادوا تنزيه علم الله من التعدد والتغير والحدوث كعلمنا الذي يتغير بتغير أحوال المعلوم من الموجودات المتغير ، كما يتغير علمنا بمعرفة الإنسان جنينا ثم طفلا ثم رضيعًا شابًا ثم كهلاً ثم شيخًا .

---

(1) فصل المقال .

(2) تهافت الفلاسفة ، تعليق سليمان دنيا ص ٣٠٥ .

وقال أيضًا : إنهم لا ينكرون علم الله بالجزئيات والحوادث لأنه تعالى هو الذي يرسل الوحي والإلهام وينذر الناس ويبشرهم في المنامات ، وكل ذلك من جزئيات الأمور والفلاسفة يثبتونها ولا ينكرون علم الله بها إنما قالوا بعدم تطور علم الله كما يتطور علمنا .

أما المسألة الثالثة من قولهم : « إن الله لا يحشر الأجسام وإنما يحشر الأرواح » فأجاب ابن رشد : بأن الفلاسفة لا ينكرون المعاد فإنهم يثبتون بقاء النفس وخلودها بعد الموت . وإنما اختلفوا في إعادة الوجود الجسماني الأول بعينه وقالوا بعدم ضرورته ، وقسموا أحوال المعاد إلى ثلاثة أقسام :

الأول : إعادة هذا الوجود بعينه ، فذلك الذي قالوا بعدم ضرورته .

الثاني : إعادة وجود جسماني آخر مباين لهذا الوجود الأول أثبتوا ذلك بدليل قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ** ﴾ (إبراهيم:٤٨).

الثالث : إعادة الروح من النفس الخالدة الباقية بعد الموت بدليل قوله تعالى ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ (آل عمران:١٦٩) .

مثلوا ذلك بأن أرواح الشهداء هي الأحياء عند ربهم ، أما أجسامهم فهي بالية في قبورهم ، بل ينقل إلى السماء في حياتهم البرزخية وهم فيها أحياء ، فكيف تنقل هذه الأجسام في المعاد إلى السماء[1] وعرصات القيامة ليست على هذه الأرض ، وقد خلق الله آدم من تراب الأرض ولكن الروح هي التي نزلت من السماء وهي التي تعود إلى الله والتراب من الأرض وإليه تعود .

قال ابن رشد : « يقول الفلاسفة إنما خوطب الجمهور بما يفهمونه من محسوس البيان والتمثيل . أما الراسخون في العلم فيفهمون الحقيقة بالتأويل ، فتقرر أن الفلاسفة الذين كفرهم الفقهاء لم يكذبوا الله ورسوله في شيء مما جاء به من أمر الوجود والخلود في المعاد ، وإنما أولوا النصوص وحاولوا التوفيق بينها وبين العقل ، فلا يصح تكفيرهم بذلك كما لا يصح تكفير المعتزلة في تأويل نصوص الصفات إذ لا يكفر إلا من أنكر الله أو كذب الله أو كذب رسول الله »[2] ولا يكفر من أول شيئًا من كلام الله إذا احتمل معنيين .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : « قد حاول فلاسفة الإسلام التوفيق بين الدين والفلسفة في أسلوب ليس فيه عنف ولا نزوع

---

(1) ومثال ذلك ما جاء في حديث المعراج أن النبي التقى بإخوانه الأنبياء في السماء مع أن أجسامهم في قبورهم في الأرض .

(2) تهافت الفلاسفة ـ تعليق الدكتور سليمان دنيا ص ٣٦ .

إلى كبرياء ، وقد أفضت هذه المحاولة إلى انقلاب هؤلاء الفلاسفة مبشرين بالإسلام ودعاة له ، أما فقهاء الدين فقد كانوا الأكثر خصومًا للفلسفة والفلاسفة من غير هوادة ولا رفق»[1] اهـ .

قلت : إن من حسنات الفلاسفة العرب للإسلام أنهم نقلوا إلى العربية علوم الرياضة والطبيعة كالحساب والهندسة والطب ، فقد استفاد منها العلماء والفقهاء وأفادوا الدعوة الإسلامية بها ، واخترعوا فيها أشياء ، فكان العرب أول من استخدم الصفر في الحساب وأول من هذب الأرقام الهندية . ولا يزال بعض هذه الأرقام يحمل اسمها العرب حتى اليوم في لغات أوربا من إنكليزية وفرنسية في نحو واحد اثنتين ثلاثة ستة سبعة .

وكان العرب أول من وضع قواعد الجبر ، ولا يزال هذا العلم يحمل اسمه العربي في لغات أوربا إلى اليوم ، كما أوضحناه سابقا في موضوع العلم والدين .

فهل من العدالة بعد هذا البيان كله أن لا نشكر فلاسفة الإسلام على اجتهادهم في التوفيق بين العقل والدين وعلى خدمتهم للإسلام في نشر المعارف الرياضية والطبيعية بين أهل أوربا ، وكان فعلهم هذا مجدًا للإسلام ومدعاة إلى اعتراف النصارى بفضل المسلمين عليهم ، ثم يقول بعض المسلمين إنهم كفار .

---

(1) تمهيد الفلسفة ص ٣٨ .

إن تحمس الفقهاء أحيانا وتسرعهم في تكفير بعض المسلمين لا يكون من مصلحة الإسلام . لهذا ندعو الدعاة المعاصرين إلى الكف عن تكفير المسلمين لأن في ذلك تناقص لعددنا لا تزايد.

* * *

أثر علم الكلام في الدعوة الإسلامية

أما أثر علم الكلام في الدعوة فواضح في عدة مجالات فكرية ، لأن علم الكلام من آثار النظر والاستدلال وإن كان منعه الفقهاء لأنه لم يكن في الصدر الأول من الإسلام ، وقد استنبط الناس بعد الصدر الأول أنواعًا كثيرة من أنواع المنظر والاستدلال .

منها أصول الفقه ، الذي وضعه الإمام الشافعي . فهو استدلال قياسي منطقي لم يعرف في عصر الصحابة ولا في عصر التابعين ومن بعدهم ، ومع ذلك لم يعتبر بدعة .

قال الشيخ مصطفى عبد الرازق : « إن علم أصول الفقه الذي وضعه الإمام الشافعي لم يكن إلا نظام لاستنباط الفروع من الأصول بالقياس العقلي الذي ينبغي الرجوع إليه في التشريع . لذلك كنا نلمح في كتاب الرسالة مظهرين للتفكير الفلسفي المنطقي هما الاتجاه المنطقي في وضع الحدود والتعارف أولاً ، ثم الأخذ في التقسيم والتمثيل والاستشهاد لكل قسم» .

وقد يعرض الشافعي لسرد التعاريف المختلفة ليقارن بينها ، وينتهي به التمحيص إلى تخير ما يرتضي . وختم الشيخ بحثه بقوله : إن المتكلمين منذ القرن الرابع الهجري وضعوا أيديهم على علم أصول الفقه وغلبت طريقتهم طريقة الفقهاء فنفذت إليه آثار الفلسفة والمنطق واتصل بها اتصالاً وثيقًا»[1] .

وأنا أقول إن تأثير التفكير المنطقي الفلسفي لم يقف عند حد علم الكلام وعلم أصول الفقه[2] ، بل تعداهما إلى علم البلاغة الذي وضعه عبد القاهر الجرجاني لفهم أسرار القرآن وللوقوف على إعجازه ، وإنك لتجد ذلك واضحًا في مفتاح العلوم ليوسف السكاكي ، وفي جميع كتب البلاغة حتى كتاب السيوطي المسمى (عقود الجمان في المعاني والبيان)، فإنك تجد آثار المنطق عند الكلام على الدلالة اللفظية والمطابقة والدلالة التضمنية والالتزامية، وعند الكلام على علم البيان والمجاز العقلي والكناية والاستعارات ، تجد في ذلك كله آثار الفلسفة والمنطق .

ومهما ذم الفقهاء علم الكلام فإن أمثال الغزالي من أعلام الإسلام لم يجدوا بدا من الاعتراف بفضل علم الكلام في الدعوة الإسلامية .

---

(1) تمهيد الفلسفة ص ٢٣٢ .

(2) الإسلام والنصرانية ص ١٩٨ .

قال الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال : « أما مقصود علم الكلام فهو حفظ العقيدة على إنسان نشأ مسلمًا ، وأخذ عقيدته من الكتاب والسنة ، فيحفظ العقيدة من الشكوك التي تثار حولها والطعون التي توجه إليها . اهـ» .

وكتب محمد بن الوزير في البرهان القاطع قائلاً :

« وإذا قلنا إن الأنبياء لم يأتوا بشيء من جنس علم الكلام لمعرفة الله ، فليس القصد بذلك إنكارًا لعلم الكلام ، فإن فيه ما يعلم صحته بالضرورة ، وإنما فيه إنكار اعتماد الأنبياء ومن عاصرهم على أدلة الكلام المحضة ، وبيان أن الذي كانوا عليه يكفي المسلم» ا هـ .

قلت : فإذا كان علم الكلام نافعًا للدعوة الإسلامية في العصر العباسي الذي ظهر فيه الملاحدة واختلط فيه المسلمون بغيرهم من أصحاب الأديان الأخرى ، فإن المسلمين اليوم أكثر اختلاطًا بالملحدين والزنادقة الذين هم أشد على الإسلام عتيًّا .

فالنظر في علم الحجج والبراهين للدفاع عن طعون الملاحدة واجب في هذا الزمان .

وكان الإمام محمد عبده يدعو إلى إحياء آثار علم الكلام في هذا العصر بقوله في كتاب : الإسلام والنصرانية « أهمل المسلمون علوم دينهم والنظر في أقوال سلفهم حتى إنك لا تجد اليوم في

أيديهم كتابا من كتب الحسن الأشعري ، وأبو منصور الماتريدي، ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات أبي بكر الباقلاني ، وابن إسحاق الأسفرائيني » .

وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب .

ثم استطرد يقول : « إن حالة طلبة العلوم الدينية الإسلامية أصبحت مما يرثى له في أكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرأون في كتب علم الكلام إلا مختصرات ، لا يستطيع الطالب أن يتعلم في أدلتها وتصحيح مقوماتها وتمييز صحيحها من باطنها »[1].

وبعد : فتلك هي لمحات عابرة في تطور الدعوة الإسلامية مع علم الكلام وعلم أصول الفقه وعلم البلاغة ، التي من آثار الفلسفة التي كان الفقهاء يكفرون من تعلمها من أجل أخطائهم في غيرها . وهي آثار واضحة لا تنكر ومزيتها لا تجهل . ولنكتف بهذا القدر لنتمكن من المرور العابر على موضوع آخر ، وما كان يقول المحدثون والسلفيون عنه ، ثم نترك الحكم بيد القارئ العادل .

* * *

(1) الإسلام والنصرانية ص ١٩٨ .

الفصل الثالث

أثر التصوف
في مسيرة الدعوة الإسلامية

التصوف هو التنسك والتعبد والتزهد وتزكية النفس .

لا يختلف اثنان في تأثير التصوف على الفكر الإسلامي إثباتا أو نفيًا ، إيجابًا أو سلبًا ، حيث إن الفقهاء والمحدثين خاصموا التصوف والصوفية على خلاف موقفهم للفلاسفة .

ولو أحصينا الذين ناصروا التصوف والذين خاصموه لوجدنا الفريق الأول أكثر عددًا من الفريق الثاني ، ولم نعرف من الفقهاء والمحدثين من تحملوا على الصوفية في عصرهم أكثر من ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهاب ، ومع ذلك وجد لكل واحد منهم نزعات صوفية ، إما في الزهد أو الورع ، وإما في التعبد والتنسك ، مما يسميه الصوفية أحوالاً ومقامات ، وقد تأثروا بالتصوف سواء أحبوا أن ينسبوا إلى التصوف أم كرهوا .

وفي السطور الآتية ما يوضح ذلك :

ما هو التصوف ، وكيف نشأ في الإسلام ، وما هو الأثر الذي تركه في الدعوة إلى الإسلام ؟ وهل ستقضي السلفية على الصوفية في هذه البلاد ...؟ أربعة أسئلة إليك أجوبتها :

الجواب الأول : عرف التصوف بتعاريف مختلفة حسب اختلاف المذاهب والمناهج ، ذكر أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء عددًا منها ، وذكر القشيري في الرسالة ، والهجويرى في كشف المحجوب عددًا كذلك ، ذلك لأن الصوفية أشكال لا حصر لهم ، ففيهم العلماء وفيهم الفقهاء وفيهم الأدباء وفيهم الفلاسفة ، وفيهم البسطاء السذج ، وفيهم الصادقون المخلصون ، وفيهم الكاذبون المضللون ، وفيهم الدعاة وفيهم الأدعياء ، والكل يأخذ من مشربه وكل إناء ينضح بما فيه ، لأنهم ينظرون من مختلف الزوايا والنوافذ .

ويمكن لمن يريد إجمال تعاريف التصوف في كلمات وجيزة أن يقول :

التصوف عقيدة وعمل ، وهو أيضًا عاطفة ووجدان .

التصوف عبادة ونسك ، وكل عابد متنسك صوفي .

التصوف بحث ومعرفة للحقائق ، وكل باحث في الحقائق صوفي .

التصوف وعظ وإرشاد ، وكل واعظ مرشد صوفي .

والتصوف زهد فيما عند الناس ورغبة فيما عند الله ، وكل زاهد في الدنيا صوفي . غير أن بعضهم وضع فرقًا في الدرجات بين الزاهد والصوفي والعارف :

فالزاهد : من يترك الدنيا طلبًا للآخرة ، وهو يقف موقفًا سلبيًّا.

والصوفي : من يعمل في الدنيا وللآخرة ، وهو يقف موقفًا إيجابيًّا .

والعارف : من يجاهد نفسه ويروضها ، طلبًا للكمال .

وبالجملة نقول : التصوف تزكية النفس وتدريبها على الفضائل ومحاسن الأخلاق ، كترويض الحيوان المفترس على المسالمة والمداعبة[1].

إن روح التصوف متأصلة في الإسلام لأنها منبثقة من الإحسان الذي هو آخر درجات الإسلام قال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ (لقمان:٢٢).

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ (البقرة:١١٢) .

---

(1) نظرات في التصوف والكرامات للأستاذ جواد مغنية .

أما صلته بالإسلام فنقول : إنه من صميم الإسلام لأنه في درجة الإحسان ثالث درجات الإسلام .

ولتوضيح هذه الدرجات جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ في صورة سائل يسأل ما هو الإسلام ؟ فيجيب النبي ، ثم يسأل ما هو الإيمان ؟ فيجيب النبي ، ثم يسأل ما هو الإحسان ؟ فيجيب النبي ، ثم ينصرف ويقول النبي : هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

قام الفقهاء بشرح معنى الإسلام وسموه فقهًا وشريعة ، وقام المفكرون بشرح مقام الإيمان وسموه علم التوحيد أو علم أصول الدين ، ثم قام العباد والنساك والزهاد بشرح مقام الإحسان وسموه التصوف أو تزكية النفوس من قوله تعالى ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ** ﴾ (الجمعة:٢).

نشأ التصوف في القرن الثاني والثالث ، كما نشأت العلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير ونحو وصرف وبلاغة . واجتهد علماء التصوف في وضع قواعد القربات والأخلاق ومجاهدة النفس وتزكيتها ومعاجلة أمراض القلوب بالصلاة والصيام والأذكار ، فتعددت مذاهب التصوف كما تعددت مذاهب الفقه ومذاهب التوحيد والكل مجتهدون .

اشتهر من أئمة الفقه أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ابن حنبل .

واشتهر من مذاهب التوحيد واصل بن عطاء وأبو الحسن الأشعري والماتريدي . واشتهر في مذاهب التصوف الحارث المحاسبي والجنيد والغزالي وآخرون .

ثم تعددت الطرق الصوفية على غرار المدارس ، يتعدد فيها الأساتذة يستعملون عدة مناهج في تدريس فن واحد ومادة واحدة، ويختلفون في اختيار الأسلوب حسب اختلاف بيئاتهم وميولهم ورغباتهم . والطريقة : رابطة روحية تنظم أفراد الناس في سلك واحد تحت قيادة موحدة ، ولا يؤخذ عليهم إلا التعصب لآرائهم والدعاوى في شطحاتهم ، والغلو أحيانًا في عباداتهم ولا يطرد منهم غير الأدعياء .

* * *

أقسام التصوف

ينقسم التصوف إلى ثلاثة أقسام :

قسم عملي ، وقسم علمي ، وقسم نظري فلسفي .

أما القسم العملي : وهو الإقبال على الله بالطاعات والقربات من الأذكار والصلوات ، مما ورد لها نصوص كثيرة في القرآن والحديث .

أما القسم العلمي : هو ما يتعلق بالأخلاق وحسن المعاملة مع الله من قوله عليه السلام : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

أما القسم النظري : هو الذي امتزج بالفلسفة حيث التقى الصوفي بالفيلسوف عند عدم اكتفاء الفيلسوف بالسطحيات في التفكر لطلب المعرفة الطبيعية ، وعند عدم اكتفاء الصوفي بالسطحيات في التفكر لمعرفة خالق الطبيعة . فيذهبان إلى ما وراء هذه المقدمات والبدايات من النتائج والغايات ، فانقلب الصوفي فيلسوفًا والفيلسوف صوفيًّا باختلاف يسير في طلب المعرفة وفي غاية المعرفة . فالفيلسوف يطلب المعرفة من الدليل العقلي المرتب من المقدمات اليقينية والصوفي يطلبها من الإلهام

والكشف الباطني عن طريق مجاهدة النفس وترويضها والتوجه إلى الله حتى يحصل للقلب صفاء ونقاء ، فيلقي الله في قلبه نوراً يعرف به الأشياء بالإلهام الذي لا يقبل الشك .

يقول ابن رشد في الكشف عن مناهج الأدلة : (أما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طرقًا نظرية مركبة من مقدمات وأقيسة ، وإنما يزعمون أن المعرفة بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية وإقبالها بالفكرة على المطلوب) .

* * *

obeikandl.com

مظاهر التقاء الصوفي بالفيلسوف ثلاثة

أولاً : فالمعرفة أهم مظاهر التقاء الفلسفة بالتصوف ، ولقد قسموا المعرفة على أربعة أقسام :

(أ) المعرفة بالحواس الخمس ، كالحرارة والضوء والطعم والذوق والرائحة .

(ب) ثم المعرفة بالعقل كمعرفة الحقائق الحسابية والهندسية ، وهذا طريق الفلسفة .

(جـ) ثم المعرفة بالوحي كالعبادات والعقائد ، وهذا خاص بالأنبياء .

(د) ثم المعرفة بالقلب وهو الإلهام أو الكشف الباطني الذي يعتمد عليه الصوفية ، ولكنه غير معصوم عن الخطأ .

فالصوفيون في إلهامهم يصيبون ويخطئون وإن كان صوابهم أكثر من خطئهم .

ثانيًا : ثم التقى التصوف بالفلسفة في تفضيل الروح على الجسد باعتبار الأول باقيًا والثاني فانيًا .

وقد تأثر الصوفي المسلم بالصوفي النصراني الذي سبقه وبالفيلسوف الإسكندري ، الذي ظهر في القرن الثاني الميلادي في الإسكندرية مع مذهب مزيج من الفلسفة والدين وهو أفلوطين الذي كانت حياته صوفية فلسفية مبنية على الزهد والتقشف لتطهير الروح من أدران الجسد . لم يكن ينعم بالنوم إلا بقدر الحاجة ولم يكن يبيح لنفسه من الطعام إلا ما يقيم أوده ، وحرم على نفسه أكل اللحوم ، وقد منع الفنان أن يصوره بحجة أن المصور لا يزيد لصورته إلا على أن يثبت ظلا لظل ، وقد تنازل عن كل ثروته وفك رقاب من كان تحت يده من رقيق ، وكان يسرد في صومه[1].

ثم ظهرت الرهبانية النصرانية في المنطقة المصرية أيضًا بالقرب من ذلك العهد .

وقد تأثر التصوف الإسلامي بهذين المذهبين لأنهما منتشران في مصر والشام عند ظهور الإسلام .

ثالثًا : ويلتقي الصوفي مع الفيلسوف في البحث عن الخالق وعلاقته مع المخلوق وفي أولية الوجود وقانون السببية .

تفكر الصوفي كيف بدأ الله خلق الوجود وما هو أول شيء خلقه الله ، وما صلة الكون بالخالق ؟ فأجاب : بأن أول شيء

(1) الملل والنحل للشهرستاني ٢/٤١٦ .

خلقه الله نور النبي محمد كما سيأتي ، وكذلك تفكر الفيلسوف قبله حيث أجاب الفلاسفة : بأن أول شيء خلقه الله هو الجوهر الفرد أو السديم أو الذرة أو المادة الأولى (الهيولي) على اختلاف الألفاظ والمعنى واحد ، ومنها خلق الله كل شيء والسموات والأرض .

* * *

أزلية المادة

ثم ذهب الفيلسوف إلى أبعد من ذلك إلى ما يسمى بقانون السببية ، وهو أن تولد الكائنات وخروج بعضهم من بعض معروف بقانون السببية ، وبمعنى أوضح أن كل موجود يتصل موجوده بموجود آخر ، حيث يرى الإنسان أن الشيء الحادث ينشأ من شيء آخر متقدم على الحادث بزمن قريب أو بعيد .

فالسحاب ينشأ من الحرارة الشمسية ومن تبخر المياه ، ومن السحاب ينشأ المطر ، فينزل إلى الأرض ، ومن المطر النازل إلى الأرض يخرج النبات ، ومن الهواء والماء يخرج كل شيء وبهما حياة كل شيء حي .

سأل الفيلسوف من أين جاءت هذه المادة الأصلية للكون ؟ فأجاب إنها لا تخلو من أحد الأمرين :

إما أن يكون شيئًا مأخوذًا من ذات الله صادرًا منه ، ومن هذا نشأت عقيدة وحدة الوجود الفلسفي .

وإما أن يكون شيئًا قديمًا مع قدم الله ، وهذا ينتج أنها غير مخلوقة فتعدد القدماء وأثبتت الأديان كلها أن الله وحده هو القديم الأزلي الأبدي وإن كل شيء غير الله مخلوق والله هو الخالق .

لهذا كفر الفقهاء الفلاسفة . مهما حاولوا التوفيق بين مذهبهم هذا مع الدين ، فإنهما لا يتفقان ، فإن الأديان متفقة على أن الله أوجد العالم من لا شيء ، بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا ﴿ **إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن** ﴾ (يس:٨٢) .

* * *

الصوفيون وأولية الخلق

بحث الصوفي عن أول شيء خلقه الله ومنهم من قال العقل ، لحديث : « أول شيء خلقه الله العقل ، ثم قال له أقبل فأقبل ، ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال له بك أعطي وبك أمنع وبك أحاسب وبك أعاقب» رواه ابن المحبر وهو معاصر ابن حنبل .

وذهب الآخرون إلى أن أول شيء خلقه الله هو نور النبي لسؤال جابر بن عبد الله : ما هو أول شيء خلقه الله يا رسول الله ؟

فأجاب : «نور نبيك يا جابر ، فهو من نور الله ثم خلق الله كل شيء من هذا النور».

ولكن رجال الحديث لا يعملون بهذين الحديثين إطلاقًا وربما يرونهما موضوعين بل الصحيح «أن أول شيء خلقه الله القلم ، ثم قال له اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»

رواه أبو داود .

* * *

معنى وحدة الوجود

وحدة الوجود :

معناها : صدور الموجودات عن ذات الله أو عن صفاته ورجوعها إليه حتمًا ، ذلك عند الفلاسفة أن المادة الأولى التي هي أصل الموجودات صدرت عن الله بأية كيفية ، سواء كان هذا الأصل نورًا استفاض من الله أو كلمة من كن فيكون ، لأن العقل يرى صدور الكائنات من شيء يتحول إلى شيء ولا يرى صدور شيء من لا شيء .

وأول ما عرف الناس وحدة الوجود فمن الديانة الهندية التي هي أقدم ديانة فلسفية في التاريخ ، لأنها تعود إلى القرن العشرين

قبل الميلاد ، وذلك أنه لما تعددت الآلهة قام المذهب البرهمي على إنكار هذا التعدد وعلى الإيمان بإله واحد أخرج العالم من ذاته ، وظل يحافظ عليه وعلى نظامه إلى أن يفنيه ويرده إليه .

لهذا جعلوا له ثلاثة أسماء : الأول برهما من حيث هو الخالق. والثاني فيشنو من حيث هو الحافظ . والثالث سيفا من حيث هو المفني المهلك ، وهو إله واحد له ثلاثة أسماء بأفعاله[1] .

هذه هي اللبنة الأولى لوحدة الوجود التي انتشرت بين الفلاسفة حتى سرت إلى رجال الصوفية ونطق بها محيي الدين بن عربي وآخرون وأعطوها معنى آخر غير التي عند الهنود .

ثم عرف الناس وحدة الوجود بمعنى اتحاد الخالق مع المخلوق ثم عرفوه بمعنى حلول الخالق إلى المخلوق . ومعناها عند الصوفية أن يجاهد الصوفي نفسه ويجتهد في عبادة ربه على الصدق والإخلاص والقناعة والتوكل والزهد والتوبة والتقوى والورع والصمت والتأمل والاعتكاف ، فيجتاز المقامات والأحوال كالأنس والشوق والحب والخوف والرجاء والغيبة والحضور والفناء والبقاء ، حتى يصل إلى الله فيخيل إليه أنه والباري

---

(1) وهذا أيضًا منشأ التثليث الذي نطق به أخيرا أهل الديانة النصرانية . لذا قال القرآن : ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ .

جل وعلا شيء واحد في تأويل معنى بي يسمع وبي يبصر وبي يبطش .

أما الحلول فهو أن ينزل الله إلى الدنيا في صورة إنسان كما ادعت النصارى أن الله نزل في شخص عيسى ، أو كما ادعت الشيعة أن الله نزل في شخص علي بن أبي طالب ، وكذلك يدعى الصوفي المعتقد بأنه اتحد مع الله أو اتصل إليه أن الله حل في جسده بأن صار بصره وسمعه ويده ورجله .

تلك هي المذاهب الثلاثة (وحدة الوجود والاتحاد والحلول) التي كفَّر الفقهاء من أجلها الصوفية الذين قالوا بها وليس كل الصوفية يقولون بها . والذين يقولون بها يفسرونها على غير تفسير الفلاسفة .

ومن الذين كفروهم السخاوي والتفتازاني وابن حجر العسقلاني وابن تيمية وآخرون .

ثم جاء من بعدهم من دافع عن الصوفية وانتصر لهم كعبد الرؤوف المناوي وعبد الرحمن السيوطي ومجد الدين الفيروزابادي وعبد الوهاب الشعراني ، وهم من الذين حاولوا التوفيق بين هذه المذاهب وبين الإسلام وقالوا : إن وحدة الوجود معناها عند الصوفية أن لا موجود حقيقة إلا الله وذلك معنى لا إله إلا الله عندهم .

وبعبارة أخرى أن الله كان حقيقة مطلقة لا شكل لها ولا صورة . ثم أحب أن يعرف فأخرج الموجودات وأعطاها صورها ، ولا تزال الصور تتحول من شكل إلى شكل حتى تعود إلى الله وليس العالم إلا مظهراً تجلى الله فيه[1] .

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ (الحديد:٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ .

وعند خلق آدم : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ .

وبقوله عند خلق عيسى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ .

وبقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦) .

ويحتج الصوفية بالحديث القدسي في قوله : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وبي عرفوني » ولكن رجال الحديث ينكرونه .

أما الاتحاد فقد سموه الاتصال واستدلوا عليه بما جاء في الصحيحين من قوله تعالى : « ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي

---

(1) محاضرات الفلسفة الشرقية ، لمحمد خليل هراس ص ١٧ .

يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه» .

ومن هنا جاءت شطحات الصوفية حتى قال الحلاج : «أنا الحق أو أنا الله أو ليس في الجبة إلا الله» وأفتى الفقهاء بكفره فقتلوه كفراً أو حدا على اختلاف أقوال العلماء فيه .

أما الحلول فقد وقع في شيء منه بعض المتمسكين بظاهر النصوص ومنهم ابن تيمية في قول الرسول : «ينزل ربنا إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من كل ليلة» ويروى عن ابن تيمية أنه كان على المنبر ومثل نزول الرب بنزوله ، وقال : ينزل كنزولي من على هذا المنبر .

قلت : إن حديث نزول الرب إلى سماء الدنيا كل ليلة يدل ظاهره على أن الله يطوف دائمًا حول الأرض يتبع الثلث الأخير كل ليلة ولابد من تأويل الحديث .

* * *

التصوف بين أنصاره وخصومه

ولو أحصينا الذين خاصموا التصوف والصوفية من أعلام الإسلام في مختلف القرون لوجدناهم على عدد أصابع اليد الواحدة . وبعد الإمام أحمد بن حنبل الذي عاصر المحاسبي

وعرف ما بينهما من خلاف ، وأخيراً نقل عن ابنه عبد الله ما يدل على احترامه لتعاليم الصوفية ، لا نجد من الأشداء على التصوف غير ابن الجوزي وابن تيمية وقليل ممن حذا حذوهم . ونرى إلى جانب ذلك ألوفًا من الأعلام الأتقياء في كل قرن وفي كل أمة من تصوفوا ودافعوا عن التصوف والصوفية لو أسقط عددهم من جمل الإسلام لطف الكيل والميزان ، ونحن نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي :

١- الحارث المحاسبي المتوفى (٢٤٣هـ) وهو ممن عاش في القرن الثالث الهجرى عاصر الإمام أحمد بن حنبل أسند الحديث عن أبي الدرداء . وقد راقبه ابن حنبل حين استمع إليه في المعرفة وأحوال القلب ، وكان يتكلم بين أصحابه من أول الليلة إلى الفجر، ولم ينكر من حاله شيئًا .

٢- الجنيد المتوفى (٢٩٧هـ) إمام جليل من الأئمة المقتدى بهم، وهو الذي وضع قواعد التصوف ، لذلك صار يلقب إمام الطائفة الصوفية ، وقد أجمع العلماء على إمامته كالأئمة الأربعة .

٣- أبو عبد الرحمن السلمي المتوفى (٤١٢هـ) وهو من رواة الحديث عن تابع التابعين ، وله كتب في الحديث والتفسير والتصوف ، له كتاب طبقات الصوفية ، ترجم فيه لمائة ونيف عابد متنسك .

٤- أبو نعيم الأصبهاني المتوفى (٤٣٠هـ) صاحب كتاب حلية الأولياء، ترجم عن فيه (٨٠٠) ثمانمائة عابد وناسك من الصوفية .

٥- أبو القاسم عبد الكريم القشيري المتوفى (٤٦٥هـ) له كتاب الرسالة ، ترجم فيه لعدد من أعلام الصوفية ، وشرح فيه قواعد التصوف .

٦- محمد بن طاهر الحافظ المقدسي المتوفى (٥٥٧هـ) له عدة مؤلفات منها صفوة . استنبط فيه جميع أحوال الصوفية من أحاديث رسول الله .

٧- أبو طالب المكي المتوفى (٣٥٨هـ) صاحب كتاب قوت القلوب ، وكتاب علم القلوب في معرفة أحوال القلب وهما من أعظم كتب التصوف .

٨- الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) . إمام في الأدب واللغة وصاحب مفردات القرآن والذريعة إلى مكارم الشريعة ، وتفصيل النشأتين في التصوف وعلم النفس .

٩- أبو نصر السراج الطوسي له كتاب اللمع في التصوف ، وهو من أمهات كتب التصوف .

١٠- أبو حامد الغزالي المتوفى (٥٠٥هـ) . دافع عن التصوف كثيراً وله كتاب إحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال .

١١- أبو مدين المغربي المتوفى (٥٩٤هـ) ، اسمه شعيب وآثاره العلمية والدينية أكثر ، وله مؤلفات وتلاميذ ، اجتمع بالشيخ عبد القادر الجيلاني على عرفات وأخذ عنه .

١٢- عبد القادر الجيلاني المتوفى (٥٦١هـ) صاحب كتاب الغنية لطالبي طريق الله عز وجل ، وله طريقة من أشهر طرق الصوفية المنتشرة في آسيا وأفريقيا .

١٣- عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء المتوفى (٦٦٢) له في التصوف كتاب الشريعة والحقيقة .

١٤- أبو إسماعيل الهروي صاحب كتاب منازل السائرين الذي جاء بعده ابن القيم تلميذ ابن تيمية وشرحه وناقشه في ثلاثة أجزاء.

١٥- ابن حجر المكي الهيثمي المتوفى (٩٧٤هـ) محدث فقيه صوفي ، تربى في كنف أحمد البدوي بطنطا ، له مؤلفات كثيرة مشهورة .

١٦- أحمد زروق المغربي ، فقيه محدث مشهور له كتاب قواعد التصوف والنصيحة الكافية وعمدة المريد .

١٧- عبد الرحمن السيوطي وهو الحافظ المحدث المشهور له عدة مؤلفات في مختلف الفنون ، وله كتابان في الدفاع عن

ذي النـون المصـري ، وعقـد للتصـوف بابًـا في كتابـه نقابـة العلوم .

١٨- ابن الحاج المغربي صاحب كتاب المدخل ، أنكر فيـه علـى جميع البدع والأهواء وقرر صحة التصوف الإسلامي .

١٩- ولي الله الدهلوي الهندي صـاحب كتـاب حجـة الله البالغـة ، كان معروفًا بمقاومة البدع ومناصرة السنة ، وله قدم راسـخة في التصوف . توفى (١١٧٦هـ) .

٢٠- عبد الوهاب الشعراني ، محدث فقيه صوفي له عدة مؤلفـات في الحديث والفقه ، وله في التصوف الطبقات الكبرى ، ذكر فيها أعـلام الصـوفية مـن الصـدر الأول إلى عهـده في القـرن العاشر .

٢١- أبو إسحاق الشـاطبي المتـوفى (١٢٨٨هـ) صـاحب كتـاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، حارب فيه البدع ، وأنكر أنواعهـا وأثنى على الرعيل الأول من الصوفية .

هذا قليل من كثير من أعـلام الإسـلام ، آمنـوا بصـحة التصـوف وصلاحيته للأخلاق والسلوك والطاعة والقربة .

فهل نخرج هؤلاء جميعًا من حظيرة الإسلام ؟ كلا .

* * *

خـــاتـمـــة
في تأثر النبات والحيوان والإنسان بمناطق الأرض

لقد جرت حكمة المولى القدير أن يتأثر النبات والحيوان والإنسان بمناطق الأرض ، فالمناطق الحارة أو المعتدلة تنبت النباتات المناسبة لها وتربي الحيوانات الملائمة لها ، فالفيل لا يعيش في الصحراء ، والإبل لا تعيش في الغابات .

ومن ناحية أخرى جعل الله طبيعة الجو تؤثر على ألوان الحيوان والإنسان ، فلون الناس والكلاب والخرفان والهررة من الحيوانات الداجنة وأمثالها من الحيوانات الوحشية في المناطق الحارة ، يختلف عن ألوان تلك الحيوانات في المناطق المعتدلة والباردة ، وكذلك النباتات . فالعنب والنخيل والزيتون تنبت في المناطق المعتدلة ولا تنبت في المناطق الحارة وإن نبتت تغير لونها وطعمها إلى خلاف المألوف ، وتمتاز منطقة معينة في أوربا بظهور الحكماء كما في اليونان ردحًا من الزمان ، كما امتازت منطقة معينة في آسيا بظهور الأنبياء فيما بين الحجاز ومصر والشام وما بين النهرين على رأي العقاد .

ومن الناس من يقول إن الحكماء اليونان كانوا أنبياء فنسيهم التاريخ وحشروا في عداد الفلاسفة .

وظهرت عدة الأولياء في العراق ومصر وشمال أفريقيا وغربها والهند ، مدة من الزمن ولم تظهر في غيرها ، ولقد كانت هذه المميزات نفحات ربانية تحملها عنايته تعالى من أرض إلى أرض مدة ، ثم تختفي حين يظهر ما يماثلها أو يقاربها في جهات أخرى كما تحمل الرياح لواقح النباتات .

فالتصوف في العراق ومصر والهند غير التصوف في الشام وسوريا والحجاز ، كما أن التصوف في غرب أفريقيا غيره في شرقها ، وإن كان بينه وبينه تشابه وتماثل .

فالزوايا الصوفية في غرب أفريقيا كانت معسكرًا للجيوش ومعهدًا للطلاب وملجأ للمنكوبين .

فالطرق الصوفية رابطة روحية وقيادة متبوعة وجمعية تعاونية ، فلا تكره أو تمنع من أجل مثالبها ، فالأذكار والأوراد بديلة للأميين الأعاجم عن تلاوة القرآن التي تراعى فيها قواعد التجويد، وما يترتب منها من القراءات التي يخشى القارئ الوقوع في اللحن منها .

وفي الحديث : «رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه» ومن أراد أن ينسخ كل هذا فليأت بخير منها أو مثلها وإلا فالبناء خير من

الهدم والعمل خير من الكسل والهمل ، والتبشير والتيسير خير من التنفير والتعسير قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل:١٢٥) .

* * *

انتشار الإسلام
في غرب أفريقيا على أيدي الصوفية

كان الدعاة إلى الإسلام في بلاد السودان الغربي (غرب أفريقيا اليوم) أمة واحدة على ملة واحدة في المذهب الأشعري كأصول العقيدة ، وفي المذهب المالكي كفروع العبادة ، وفي المذهب الصوفي كمنهج التربية النفسية . وليس بين هؤلاء الدعاة خلاف جوهري جذري ، وإن ظهر بينهم خلاف أحيانًا فلا يكون إلا عرضيًا سريع الزوال .

وعلى ذلك ظل الإسلام يسير سيره الطبيعي حتى شمل الأقطار والأمصار وعمرت فيها المساجد وبنيت بها المعاهد والمدارس ، وتخرج منها فحول ورجال الدولة الذين شيدوا الأمجاد ووطدوا الأوتاد ، ورفعوا علم الإسلام يرفرف على سماء غانا ومالي

وسنغى وبرنو وتكرور وماسينا وكاشنه وكانو وسوكوتو وغيرها قرونًا عديدة قبل هجوم الاستعمار على تلك البلاد .

وكانت المساجد عامرة بالذاكرين الله كثيراً صباحًا ومساء ، وكانت السكينة تنزل عليهم وكانت الرحمة تغشاهم ، وكانت الطمأنينة تغمر قلوبهم مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد:٢٨).

وكانت زواياهم معسكرات إسلامية ، وكان هؤلاء الذاكرون جنودًا إسلامية فتحت بهم البلاد التي تعد اليوم جزءًا في العالم الإسلامي ، ثم صارت الدنيا كلها بلدًا واحدًا ، واتصل الشرق بالغرب والتقى الرأي بالرأي والمذهب بالمذهب وانتشرت الكتب بفضل انتشار المطابع ، وازدحمت المكتبات بالكتب المتناقضة والمذاهب المتعارضة .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان أسهل وأيسر ، لأنه ينتهي عند المتعلمين والمفكرين ، ولكن ظهر من الدعاة الجدد من يكفر القدماء منهم ، ويطارد الذاكرين من حلقات ذكرهم في المساجد بحجة محاربة البدعة ، حتى كادت المساجد تتعطل من الذاكرين ولم يأتوا بخير مما نسخوا وأبطلوا ، مع أن الله تعالى يقول ﴿ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ ﴾ (البقرة:١٠٦) .

ولما نسخوا ولم يأتوا بخير منها امتلأت محلات الرقص والملاهي وفنادق الخمور والفجور ، ولم يستطيعوا إغلاقها ولا طرد المفسدين منها فكانوا كمن نسخ الحسنة بالسيئة .

يقول ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم : « وكثير من المنكرين لبدع العبادات تجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك والأمر به ، ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ ممن يأتي بتلك العبادات المشتملة على نوع من الكراهة .

إن النفوس خلقت لتعمل لا لتترك وإنما رأوا الترك مقصوداً لغيره ، فإن لم تشتغل بعمل صالح لم تترك العمل السيئ أو الناقص »[1] إلى أن قال : « إنه يحسن من بعض الناس مما يستقبح من المؤمن المسدد .

ولهذا قيل للإمام أحمد عن بعض الأمراء : إنه أنفق على مصحف ألف دينار ونحو ذلك فقال : دعه فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب ، أو كما قال ، مع أن مذهبه أن زخرفة المصاحف مكروهة ، ومقصوده أن هؤلاء إن لم يفعلوا هذا اعتاضوا الفساد الذي لا صلاح فيه ، مثل أن ينفقها في كتاب من كتب الفجور ككتب الأسمار والأشعار أو حكمة فارس والروم» اهـ .

---

(1) اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٩٧ .

وأدهى وأمر من ذلك كله ، أن المنكرين لم يستطيعوا أن يردوا على الملاحدة الذين يدعون إلى نبذ الأديان جملة ، لأن التدين عندهم على الإطلاق تخلف ورجعية ، أو أنه من سقط المتاع أو نزهات الأمور واحتجوا بأن هناك من الأمم المتحضرة المتقدمة اليوم ، من نبذت الأديان وراءها ظهريًّا ، كالروس والصين ولم تتخلف في شيء من الكشوفات والاختراعات في مضمار الحضارة والمدنية .

يزداد هؤلاء الملاحدة كثرة بحكم ازدياد المدنية ، ويقل عدد المترددين إلى المساجد ، ثم وقع هذا العدد القليل في بلبلة فكرية وشك وتردد من أجل تكفير بعض الدعاة ، هؤلاء الذاكرين الله كثيرًا في المساجد .

والتصوف من العلوم الإسلامية التي نشأت في القرن الثاني الهجري ، كالفقه والتوحيد والتفسير والنحو والصرف ، ونحو ذلك . مما لم يعرف له اسم في المصدر الأول بل عرف تطبيقه .

وإذا تعلقت به البدعة فقد تعلقت كذلك بالتفسير والحديث ، وإذا تسرب إلى المتصوفة عيب ، فقد تسرب مثله إلى غيرهم من الطوائف الإسلامية الأخرى .

ونحن إذا أردنا الإصلاح فليكن بالتي هي أحسن ، لا بالشدة والعنف ، كأنهم أعدى أعدائنا ، والطابور الخامس الذي جلب

علينا كل بلاء ، والجرثومة التي دست في جسدنا كل داء ، يجب أن يطاردوا ويحاربوا بكل سلاح .

ومن بين أيدينا ومن خلفنا النصارى واليهود والوثنيون والملاحدة ، يرتعون في عرض الإسلام بدون معارض ويتألبون على المسلمين في كل مكان . فكيف لا نتصالح مع هؤلاء الإخوان لمحاربة الأعداء المتربصين لنا بالمرصاد ، ونحن نرى ما بين الكتل الشيوعية والرأسمالية من عداوة سافرة ، ومع ذلك ظلوا يعقدون ندوات ومؤتمرات فيما بينهم على تقرير الأمن والسلام العالمي ، وعلى نزع السلام للتعايش السلمي .

وإذا كان ذلك ممكنًا فكيف لا يمكن التفاهم بين الطوائف الإسلامية كالسلفية والصوفية والسنية والشيعة ، وهلم جرا .

* * *

الصوفيون كغيرهم لهم محاسن ومساوئ
فلا معصوم إلا نبي

التصوف عاطفة ووجدان كما كان معرفة وسلوكًا . لذلك فالصوفية ألوان وأشكال ، ففيهم العلماء والجهلاء ، وفيهم المفكرون والسذج البسطاء ، وفيهم الصادقون والكاذبون ، وفيهم الدعاة والأدعياء ، ومن الجور أن نكيلهم بالكيل الواحد .

قال ابن تيمية المعروف بإنكاره الشديد عليهم : « إن كثيراً من المؤمنين المتقين أولياء الله ، قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة ، فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده ، فلا بد أن يصدر منه خطأ ، إما في علومه وأقواله ، وإما في أعماله وأحواله ، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم فإن الله تعالى قال : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ - إلى قوله - ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا ﴾ قال الله تعالى : قد فعلت .

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ مبتدع ، ومن جعل كل مجتهد في طاعته أخطأ في بعض الأمور مذمومًا ممقوتًا فهو مخطئ ضال مبتدع .

وقال رحمه الله : « وأهل السنة والجماعة يقولون : ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو أن المؤمن يستحق بوعد الله وفضله الثواب على حسناته ، ويستحق العقاب على سيئاته ، وأن الشخص الواحد يجمع ما يثاب عليه وما يعاقب عليه وما يحمد عليه وما يذم عليه وما يحب منه وما يبغض منه .

وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه أحب الرجل مطلقًا وأعرض عن سيئاته ، وإذا علم من الرجل ما يبغضه أبغضه مطلقًا وأعرض عن حسناته»[1] .

قلت : في الحب الأعمى والبغض الأعمى خطأ كبير وهو منشأ تكفير بعض المسلمين بعضًا وادعاء كل فريق الحق لنفسه ونسبة غيره إلى الخطأ والضلال .

فالطريقة الصوفية في غرب أفريقيا رابطة روحية قوية وطاقة نفسية صلبة ، تنظم أفرادًا من الأتباع في سلك واحد وتحت قيادة مسموعة ومتبوعة ، وكانت الطريقة تعمل عمل الجمعيات الخيرية الحديثة في السلم ، وتعمل عمل الجيش الإسلامي في الحرب .

وكانت الزوايا التي تتمركز فيها أصحاب الطرق تقوم مقام الملاجئ للفقراء والمساكين ، وتقوم مقام المعاهد والمدارس لطلبة الثقافة من القرآن والحديث والفقه والأخلاق ، وتقوم مقام المساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . حتى أنجبت الثقافات والحضارات والدول والحكومات التي يذكرها التاريخ ، ويفتخر بها المسلمون اليوم في غرب أفريقيا وفي العالم ، وكل ما يذكر من آثار العلم والأدب والثقافة في تلك البلاد إنما هي غرس من غراس رجال الطرق الصوفية .

---

(1) رسالة الصوفية والفقراء .

وأقرب شاهد لذلك أني أنا المحاضر أمامكم نشأت من كنف الصوفية ، لأن والدي صوفي وجميع أساتذتي كلهم صوفيون ، ولولاهم لما انتفعت ولا سعدت بهذه الثقافة ولا انتفعت بي الدعوة الإسلامية اليوم .

وبفضل التصوف والطريقة القادرية استطاع الشيخ عثمان ابن فودي من قبل أن يكون الجيش الإسلامي ليحارب بهم الطغاة الجبابرة من ملوك السودان ، حتى أسس أكبر دولة إسلامية اكتسحت جميع ما يعرف اليوم بشمال نيجيريا ، ويبلغ عدد سكانها اليوم نحو ستين مليونًا ونصف على الإحصاء التقديري ، وبفضل التصوف والطريقة التيجانية استطاع الحاج عمر الفوتي أن يؤسس « بالسنغال ومالي وماسينا » دولة إسلامية قاومت الاستعمار الفرنسي عند احتلالهم للبلاد طوال ربع قرن واحد من الزمان .

وكذلك محمد الأمين السامري ، وأحمد بامبا ، رحمهما الله ، وأمثالهم في مالي والسنغال وساحل العاج .

إن الذين يقولون بأن رجال الطرق الصوفية في غرب أفريقيا كانوا أداة مسخرة للاستعمار ، أو كانوا عضوا أشل في المجتمع ، قد تلقوا الخبر الكاذب من فاسق ، ولم يتبينوا حتى أصابوا القوم بجهالة ، وهل ينسى تاريخ الاستعمار الإنجليزي مقاومة الصوفي

الكبير السوداني محمد المهدي الذي كون جيشه من الدراويش فظلوا يسقطون جنرالاً بعد جنرال تحت أقدامهم .

وقد وقفوا أمام الجيش الإنجليزي المدربين المسلحين بالأسلحة الحديثة تحت قيادة عردون وكتشنر وغيرهم ، فقاومهم الدراويش العزل بقوة لا قبل لأحد بها ، وهل ينسى الاستعمار الإيطالي والفرنسي أيضًا مقاومة السنوسيين في ليبيا .

وكل هؤلاء المجاهدين كانوا رجال الطرق الصوفية ، وكانوا يرزقون الكرامات في حروبهم مع الاستعمار وتحصل لهم الانتصارات في جميع المعارك . وهل من العدل بعد ذلك أن تقول إنهم كانوا أداة الاستعمار وأنهم أهملوا الجهاد وركنوا إلى الكسل والخمول ؟ أو إنهم دفعوا الأمة الإسلامية إلى مؤخرة الركب .

وإذا أسقط هؤلاء من جمل حساب عدد المسلمين ومحيت آثارهم من التاريخ الإسلامي في غرب أفريقيا فماذا يبقى ؟

الجواب الأخير على السؤال الأخير :

هل ستقضي السلفية على الصوفية قضاء مبرما ؟

فنجيب على ذلك من الناحيتين (السلب والإيجاب) ونقول « لا » لأنها لم تقض عليها قضاء مبرمًا في مصر والهند .

ثم لأن نفوس الأفارقة لا تزال تتمسك بالتدين وكلما ارتسخ التدين تولد منه التصوف .

ومن ناحية أخرى نقول :

إذا استطاعت القوة المادية أن تتغلب على القوة الروحية بأثر الحضارة والعلمانية فإن نفوذ التدين سيضمحل ، فيتبع ذلك تلقائيًا زوال المذهب الصوفي وينحسر بالتدريج حتى لا يكترث أحد بالصلوات والأذكار والأدعية ، فيصير الشباب عرضة للإلحاد والزندقة كما يشاهد الآن في كثير ممن تربوا في أمريكا وأوربا.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

* * *

الفصل الرابع

دور التصوف والصوفية والسلفية المالكية المصرية والمغربية في غرب أفريقيا

تمهيد

الحمد لله والصلاة والسلام على خير خلق الله ، وبعد :

فعندما عرف أهل نيجيريا الإسلام منذ القرون الأولى ، عرفوه على أيدي دعاة وفقهاء وعلماء مالكيين أشعريين صوفيين جنيديين .

ثم اشتهر من الصوفيين أصحاب الطرق القادرية ثم التجانية فكان أغلب الدعاة من هؤلاء الطراز حتى آخر أيام ابن فودي وغيرهم من الدعاة .

وفي الآونة الأخيرة انتشرت الدعاة الحنابلة السلفيون والوهابيون في غرب أفريقيا وفي نيجيريا يحملون العصا على التصوف والصوفية .

واشتهروا بالمصلحين فتوهم المستشرقون أن كل مصلح وكل محارب للخرافات والبدع لابد أن يكون حنبليًّا سلفيًّا وهابيًّا ، حتى بلغني أن منهم في أمريكا وإنجلترا من خطب عن الإسلام في نيجيريا وحشرني أنا الكاتب لهذه السطور في زمرة الحنابلة الوهابيين وقام بالرد عليهم من حضر الخطبة وتوهم بأني صوفي قادري أو تجاني ، والحقيقة أني أنا مسلم محمدي مع كل إمام مسلم محمدي ولا أنكر ما للصوفيين من آثار طيبة في تكويني كما لا أنكر ما للسلفيين من آثار طيبة في تفكير وتصحيح عقيدتي وإيماني .

فجزى الله الجميع عني خير الجزاء ووفقنا جميعًا إلى الحقيقة والصواب .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ .

آدم عبد الله الإلوري

نحن سلفيون على المذهب المالكي

الناس زعموني صوفيًّا قلت نعم ، أنا صوفي ، ما دام التصوف علمًا وعملاً وعاطفة ووجدانًا وعقيدة وعرفانًا .

وأنا صوفي ، ما دام التصوف شرحًا للإحسان ثالث الإسلام والإيمان .

أنا صوفي ، ما دام التصوف تزكية للنفس بالطاعات والقربات .

أنا صوفي ، ما دام التصوف مجاهدة للنفس ومهاجرة للسوء ، لحديث : المهاجر من هاجر السوء والمجاهد من جاهد هواه .

أنا صوفي ما دام التصوف زهدًا فيما عند الناس ورغبة فيما عند الله .

وأنا صوفي ، ما دام التصوف بحثًا عن الحقائق ومعرفة لله الخالق .

أنا صوفي قادري تجاني لأن والدي قادري وأكملت التعليم على يد شيخ قادري هو الشيخ آدم نمعج الكنوي ، وبدأت التعليم من الأستاذين اللذين هما تجانيان الشيخ صالح محمد الأول الواعظ والشيخ عمر الأبجي الإمام رحم الله الجميع .

وبعضهم زعموني سلفيًّا ، قلت نعم ، أنا سلفي ، ما دامت السلفية الاقتداء والاتباع للقرون الأولى في الإسلام لحديث : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

أنا سلفي ، ما دامت السلفية دعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة من غير استهتار ولا استنكار .

أنا سلفي من غير حمل العصا على أحد من السلف والخلف .

وأنا سلفي ، إذا كانت السلفية في الشريعة والعادات مرونة وتطوراً لا جموداً وتزمتًا .

هذا هو التسامح الذي تعلمناه من آبائنا ومشايخنا فما هي الصوفية وما هي السلفية؟.

الصوفية : مذهب يدعو إلى تصفية النفس وتزكيتها والتقرب إلى الله بالنوافل بعد اكتمال الفرائض للحصول على محبة الله .

قال الإمام مالك رضي الله عنه كما في قواعد الشيخ زروق :

(من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق) . اهـ . ذكره أحمد زروق في القاعدة الرابعة من قواعد التصوف .

السلفية : مذهب يقف موقف الصحابة والتابعين في آيات صفات الله تعالى في كل نص أوهم التشبيه يؤمن به ويفوض معناه إلى الله ، وهي أيضًا مذهب يدعو إلى التمسك بالسنة واجتناب كل بدعة ليس لها أصل مستند في الشرع .

وكان الإمام مالك أول من صرح بمنع تأويل صفة الاستواء عندما سئل عنه قال : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

ثم جاء الإمام أحمد بن حنبل ووقف موقفا صلبًا أمام فتنة القول بخلق القرآن على رأي المعتزلة بخلاف ما عليه أهل السنة من أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق . لكن المصحف من ورق وحبر هو المخلوق .

ثم جاء الإمام أحمد بن تيمية وكان يكافح ضد الجمود الفكري ، فدعا إلى فتح باب الاجتهاد في الفروع إلى جانب حملاته على غلاة الصوفية حتى ظن الناس أنه عدو التصوف وهو ليس كذلك .

وأخيراً جاء ابن الجوزي الواعظ الشهير وحمل عصاه على الفرق الإسلامية وبالأخص منهم الصوفية في كتابه تلبيس إبليس .

ويخيل إلى الكثير من الباحثين أن السلفية كلها مردها إلى الحنابلة المذكورين وغيرهم .

ولكننا لما تتبعنا آثار السلفية وجدنا هناك فرقًا بين سلفية المالكية التي يتزعم حركاتها المالكيون وبين سلفية الحنابلة التي يقودها الحنبليون لما سنوضحه في السطور الآتية ، وحاش لله أن

يفهم الناس من مقارنتنا بين مذاهب المالكيين ومذاهب الحنابلة أننا نفرق بين إمام ومأمومه أو بين شيخ وتلميذه ، ومعاذ الله أن يظن واحد أننا ننكر للحنابلة من فضل في تنزيه الله عن التجسيم ، ومن فضل المالكية من تنزيههه تعالى عن التشبيه والتمثل .

ولكننا نريد إثبات الفضل لأهل الفضل وعرفان الجميل لأهله من المالكيين الذين نشروا الإسلام في غرب أفريقيا ومذهبهم الفكري والفقهي .

فالصحابة هم الذين حملوا لواء الإسلام من الجزيرة العربية إلى مصر ومنها إلى شمال أفريقيا ، وحملوا معها الكتاب والسنة.

وفي عهد الفقهاء قام أسد بن الفرات الذي خرج من تونس أو القيروان وتوجه إلى مصر ليتلقى من عبد الرحمن بن القاسم تلميذ الإمام مالك موطأه ، ثم ليرجع إلى بلاده ينشر علوم الإمام مالك هناك حتى وصل إلى غرب أفريقيا بما فيها نيجيريا .

وكذلك نرى عبد السلام الملقب بسحنون خرج من القيروان إلى ابن القاسم المذكور ليجمع فتاوى الإمام مالك في كتابه سماه المدونة الكبرى ، ولم يزل العلماء المغاربة يرتادون دور العلم والحكمة في مصر بالأزهر وجامع شيخو بالفسطاط .

« والمغاربة نشروا العلم إلى تمبكتو وجنى » حتى كان يخرج منها علماء يتوجهون إلى مصر للاستفادة من أعلامها فقويت

الصلة بين الطرفين حتى زار الإمام السيوطي بلاد المغرب وغرب أفريقيا وجامعة تمبكتو وجنى وزار مدينة كانو وكاشنة وأكدس .

وإذا نحن ذكرنا الفرق بين مذهب المالكية ومذهب الحنابلة في شيء من ذلك ومن غيره وإنما نريد إثبات ما كان يتمتع به رجال الفقه الإسلامي من حرية الاجتهاد المفتوح بين المشايخ وتلاميذهم تحت قاعدة : (رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) .

وقد وجدنا من تلاميذ الإمام مالك من خالفه في بعض مسائل فرعية كأصبغ وأشهب .

ولم يكن السلف يفرضون على الناس مذهبهم في المسائل الفرعية ، فقد امتنع الإمام مالك أن يقبل اقتراح الخليفة العباسي حمل الناس على الموطأ حسمًا لمادة الخلاف ، ولو قبل مالك الاقتراح لما ترك مجالاً لمذهب الشافعي وغيره أن يظهر .

والإمام الشافعي كان له مذهبان أحدهما قديم بالعراق وثانيهما جديد في مصر فلا غضاضة في اختلاف المذاهب والآراء في الإسلام .

أما الفرق بين الاتجاه السلفي في المشرق والاتجاه السلفي في المغرب فيتلخص في :

أولاً : أن أكثر السلفيين المالكية كانوا من رجال التصوف ولهم زوايا وتكايا ومريدون وأوراد ولهم مؤلفات في التصوف على

خلاف السلفيين المشارقة ، فإنهم باستثناء إسماعيل الهروي وعبد القادر الجيلاني فإنهم خصوم التصوف والصوفية وأشدهم أبو الفرج الجوزي وهو معروف بذلك في تلبيس إبليسه وابن تيمية كذلك في أكثر كتبه ورسائله وابن عبد الوهاب النجدي كذلك ومن تبعهم كالشوكاني والأمير الصنعاني فإنهم خصوم التصوف والصوفية على الأغلب .

ثانيًا : كتب عبد المتعال الصعيدي في كتابه «التجديد والمجددون» عن تقصير الجوزي وتقصير ابن تيمية في محاربة سلاطين زمانهم على ما بلغوا من أسوأ الحال وظلم الرعية .

وأنهما لم يتكلما في إصلاح الأوضاع الاجتماعية كما تكلما في الصوفية والفقهاء والاجتهاد .

ذكر أبو الفرج كثيرًا في الكلام على الصوفية كله كلام جيد يدل على عقلية مستنيرة وكان هو رجعيًا جامدًا فيما عدا هذه الناحية من التجديد إلى أن قال[1] :

وكان هو مع هذا على صلة حسنة بالملوك والأمراء الذين كان يأخذ على المتصوفة الاتصال بهم ، وقد ألف لواحد منهم كتابًا سماه «المصباح المضيء في خلافة المستضيء» وكتاب «النصر على مصر» بمناسبة عودة الخطبة للعباسيين من الفاطميين فلم

(1) التجديد والمجددون ص ٢٤٠ .

يسمع منه في إصلاح حكمهم شيئًا ولم يجتهد في جعل الحكم شوريًّا لا استبداد فيه كل هذا ونحوه قلل من شأنه في التجديد .اهـ.

أما ابن تيمية الملقب بشيخ الإسلام لمحاربته البدع ومقاومته الصوفية قال عنه الصعيدي[1] وقد أحسن ابن تيمية فيما حاوله من إحياء روح الجهاد في المسلمين بعد أن ماتت فيهم بتغلب التتر عليهم ، وأحسن فيما حاوله من فتح الإصلاح في التصوف الذي صار جهلاً وبطالة ، وأحسن فيما حاوله من فتح باب الاجتهاد في الفروع إلى أن قال : يؤخذ عليه أنه لم يحاول إصلاح طريقة الحكم في وقته وقد وصلت إلى أسوأ ما وصلت إليه في الإسلام . اهـ .

أما سلفية المغرب وجميع الذين أخذوا منهم من علماء السودان فلهم أدوار ملموسة في الإصلاح الاجتماعي وإصلاح الحكم .

كما كان لعلماء الأزهر عبر السنين العديدة سوابق في إصلاح الحكم وكذا علماء العراق كالغزالي وعبد القادر الجيلاني وعز الدين بن عبد السلام نزيل مصر .

---

(1) التجديد والمجددون ص ٢٦٤ .

يقول الدكتور حسن محمد محمود في كتابه انتشار الثقافة العربية بغرب أفريقيا[1] (إن فقهاء المالكية في السودان الغربي كان شأنهم شأن فقهاء المالكية في المغرب يتزعمون المجتمع ويدافعون عن حقوق الناس ويثورون على الظلم ويجهرون بنقد الحكام وتجريحهم فكان ولاة مراكش وباشاواتها كلما سمعوا نقدًا وتجريحًا أو رأوا خروجًا عن طاعتهم تكلموا بالعلماء والفقهاء) . اهـ .

وكان الجامع الأزهر بمصر أوحى إلى القرويين بفاس والزيتونة بتونس أن يسير الجميع على وتيرة واحدة في الاتجاه السلفي الصوفي والنصح للأمراء والسلاطين .

فما من عالم من علماء المغرب والسودان الغربي إلا وهو سلفي مالكي صوفي داعية إلى الله ، ومنهم من دعا الملوك الكفار ولاطفوهم حتى أسلموا ، ومنهم من قاوموا أولئك الملوك بالجنود والعتاد حتى انتصروا أو استشهدوا ، ومنهم من استعمل الحكمة والموعظة الحسنة مع أولئك الملوك ولم يستعجل في أمرهم حتى هداهم الله أو هدى أولادهم وذريتهم للإسلام .

---

(1) انتشار الثقافة العربية بغرب أفريقيا ص ٢٥٤ .

وقد ذكر السلطان بللو في إنفاق الميسور :

أن الشيخ الوالي التاركي مكث مدة في بلاد يأورى ما بين زمفرة ونوفي وظل يدعو سلطان يأورى إلى إقامة العدل والشريعة فقبل السلطان منه وطلب إليه أن يكتب له النصائح عند إرادته مغادرته بلاده .

وهذا الشيخ نفسه هو الذي قتله سلطان برنوماي عمر لما قام بالإرشاد في بلاده فاتهمه السلطان أنه يشتت عليه رعيته فقتله .

وهناك في بلاد يوربا عدد لا يستهان به ممن قام موقفا صلبًا في سبيل الله حتى نصرهم الله بالغلب أو بالاستشهاد كل ذلك مما ورثوه من مشائخهم المغاربة رحم الله الجميع .

السلفيون المالكيون كلهم صوفيون :

نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر عددًا من الدعاة الذين نشروا الدعوة والثقافة في المغرب وفي غرب أفريقيا ، لكي يتم تحقيق القول بأنهم سلفيون مالكيون صوفيون فنقول :

أولاً : عبد الله بن ياسين الذي قاد الحركة المرابطية وتألف من أتباعه جنود صاروا قوادًا في غزواتهم وملوكًا بعد تأسيس دولهم (يوسف بن تاشفين ويحيى بن إبراهيم وأبو بكر بن عمر) هم الذين قاموا بحمل راية الجهاد وحركة الإصلاح وإقامة السنن بالمغرب والسودان الغربي . (نيجيريا) .

ثانيًا : ثم جاء دور الفقهاء والمحدثين يدعون إلى الاتباع وينهون عن الابتداع وتلك مهمة السلفيين وأولهم :

الإمام يوسف بن عبد البر القرطبي المغربي ٤٦٤هـ في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» ما يعبر عن موقفه السلفي في كل شيء .

ثالثًا : ثم جاء القاضي عياض الذي عاش ما بين ٤٧٦ – ٥٤٤هـ وهو صاحب كتاب «الشفا في حقوق المصطفى» وهو كتاب يعبر عن اتجاهاته السلفية في إحياء السنن وإخماد البدع .

رابعًا : ثم جاء بعده أبو مدين شعيب المغربي المتوفى ٥٩٣هـ إمام جميع رجال الصوفية في الشرق والغرب .

خامسًا : ثم جاء بعده عبد الله بن سعيد بن أبي جمرة المتوفى ٦٧٥هـ له «مختصر البخاري» وهو شيخ العلماء الذين أتوا من بعده في إحياء السنن .

سادسًا : ثم جاء بعده تلميذه أحمد بن الحاج المغربي الذي اشتهر بكتابه «المدخل» وقد اقتفى أثر شيخه أبي جمرة في محاربة البدع .

سابعًا : ثم جاء بعده سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات» المتوفى ٨٧٠هـ وهو غني عن التعريف والسلفيون ينكرون على دلائل الخيرات ويعتبرونها من الصلوات الممنوعة وما هي إلا جمع لجميع صيغ الصلاة على النبي ﷺ .

ثامنًا : ثم جاء بعده أحمد زروق ٨٤٦ – ٨٩٩هـ صاحب كتاب «قواعد التصوف ، وعمدة المريد ، والنصيحة الكافية».

تاسعًا : ثم جاء بعده أحمد بن المبارك الذي تتلمذ للشيخ عبد العزيز الدباغ وقد جمع فتاوى الدباغ في كتابه «الإبريز» ١١٢٩هـ .

عاشرًا : ثم جاء أبو إسحاق الشاطبي صاحب كتاب «الاعتصام» المشهور وقد عاش إلى ١٢٨٨هـ .

وهؤلاء كلهم مالكيون أشعريون صوفيون سلفيون دعاة وهم الذين تأثر بهم علماء نيجيريا وغرب أفريقيا في سلفيتهم إلى يومنا هذا ، كما تأثر المغاربة بالسلفيين المالكيين والشوافع والحنفية دون الحنابلة رحم الله الجميع .

الشطحات في كتب القادرية

الشطحات كما وصفها الإمام الغزالي في الإحياء هي الدعاوى العريضة في الوصول إلى الله ودعوى الكرامات ومشاهدة الغيب أو رؤية الله ومخاطبته وفي كتاب الفيوضات الربانية للطريقة القادرية قصائد منسوبة إلى الشيخ عبد القادر كلها شطحات ليست حقيقية ، حتى قال بعض العلماء إنها مصنوعة على الشيخ عبد القادر وهو برىء منها ، وبعضهم قال إنه قالها في غيبوبة عندما غلب عليه السرور من القرب من الله على نحو ما رواه

مسلم في صحيحه عن الرجل الذي قال في غلبة سروره «اللهم أنت عبدي وأنا ربك» وقال بعضهم إن الشيخ قالها على عقيدة وحدة الوجود عند الصوفية .

لأن علماء الكلام قرروا في علم التوحيد إن إرادة الله وقدرته تعالى قد تعلقت بالموجودات كلها منذ الأزل في عالم الغيب قبل ظهورها في عالم الشهادة ، وقسموا تعلقات القدرة والإرادة إلى تعلق تنجيزي قديم وتعلق صلوحي وتعلق تنجيزي حادث .

فما دام الأمر كذلك فإن الأولياء الكرام ضمنوا أنفسهم تحت هذه القدرة الأزلية والإرادة الأزلية التي تعلقت بهم وبتلك الموجودات.

ويرون أنهم مع تلك القدرة والإرادة في عالم الغيب قبل ظهورها وظهورهم في عالم الشهادة وبذلك فسروا نحو قوله .

أنا مع إبراهيم يوم ألقى بناره

فما برد النيران إلا بدعوتي

فما ذلك إلا نوع من أنواع الشطحات فهي أعراض في التصوف ، فالأفضل طلب وجه التأويل لكل ما ينسب إلى الأولياء من الشطحات ، فقد حكى أن الشيخ عبد القادر في حياته بلغه أن رجلا ادعى أنه رأى الله ، فلما سئل الشيخ عن ذلك هل حق ما يقول الرجل أو كذب قال ليس بكاذب ، فشرح الشيخ للناس

ما رأى من انعكاس نفسه وروحه من عظمة الله فظن أنه رأى الله ، فدعا الشيخ الرجل وانتهره وأخذ عليه ألا يعود لمثله ولم يكذبه الشيخ ولم يكفره ، وإنما شرح كلامه بالتأويل ، هكذا يجب أن نكون مع رجال الصوفية .

قال شهد ببصيرته نور العظمة ثم انعكس إلى بصره ببصيرته فاتصل شعاعها بشهوده فظن أن بصره رأى ما شهده ببصيرته فإنما رأى بصره ببصيرته فظن أنه رأى الله .

* * *

صلاة الفاتح عند التجانيين

اتفق جمهور العلماء على أن الصلاة على النبي لا تلتزم صيغة مأثورة بل يجوز أن تختلف الصيغ .

وقالوا إذا جاز مدح النبي نظما وشعرا فكيف لا يجوز مدحه نثرا وسجعا لذلك تفننوا في صيغ الصلاة على النبي .

ومنهم من صلى عليه صلاة خالصة من طلب شيء من الله بتلك الصلاة ومنهم من صلى ومزج الصلاة برغبة أو رهبة من الله.

وقالوا إن صلاة الفاتح المنسوبة للشيخ البكري من الصيغ العالية الخالصة من طلب أي شيء بهذه الصلاة ونصها .

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق والهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله وصحبه حق قدره ومقداره العظيم قالوا في معناها .

وقالوا إن معنى الفاتح لما أغلق من باب النبوة المغلقة على بني إسماعيل عليه السلام فلم يظهر فيهم نبي قبل سيدنا محمد ، ومعنى الخاتم لما سبق أي ما سبق من الأنبياء والمرسلين وناصر الحق بالحق أي ناصر الإسلام بالقرآن أو ناصر الإسلام بالجهاد والسيف .

استأثر التجانيون بصلاة الفاتح وسلكوا في فضلها مسلك الشطحات ، حيث فضلوها على تلاوة القرآن عدة آلاف على التأويل الذي يتناقلونها بينهم فحمل عليهم السلفيون وكفروهم بها وكفروا من يصلي بها .

الحل الوسط أن نقول :

إن التغالي في فضل صلاة الفاتح لا يمس جوهرها ، والأمر في ذلك كالأمر في النبي عيسى عليه السلام قالت النصارى إنه ابن الله أو هو الله ، ويقول المسلمون كما قال القرآن إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، فإن الاعتقاد الفاسد في عيسى لا يمس جوهر عيسى فهو نبي الله ورسوله ، وكذلك الأمر في أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق لا يمس جوهر القرآن ، وكون

صلاة أفضل من كذا وكذا لا يمس جوهر صلاة الفاتح فلا يكفر من صلى بها إذ لم يحمل الاعتقاد الفاسد .

وإنما فضلوها على ما قالوا لأنهم جربوها كثيراً في قضاء الحوائج فقضيت فوراً ، وهي تقرأ فقط في بضع ثوان ودقائق ولا يقرأ القرآن إلا في أيام أقلها ثلاثة .

أيها الصوفيون والسلفيون :

باسم الله وباسم الإسلام ندعو الطرفين إلى الاستقامة في القول والعمل والصرامة والصراحة في الوعظ والإرشاد .

إياكم أن تكونوا الطابور الخامس الذين ليسوا في العير ولا في النفير ، كالمخلفين الذين تخلفوا عن القتال والجهاد ولكنهم يرجون أن ينالوا من المغانم .

الدعاة الذين هم الطابور الخامس لا ينصحون الحكومات فإنهم دائمًا مع الحكومة الصالحة والفاسدة ، يقولون نحن معكم وندعو الله لكم بالتوفيق ، يقولون هذا لكل ظالم غاشم وكلما سقطت قالوا سلمنا منها وكلما قامت قالوا سمعنا وأطعنا .

فالداعية الحق يكون مع الحق حيث كان ولا يكون أمعة (أنا مع الناس) يميل إلى كل حيز صالح أو فاسد ، وإياكم ولوم

المتقدمين والنيل منهم على ما قدموا من جهود فتأدبوا معهم حسب تعاليم الإسلام .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠) .

opeikandl.com